مشروع إعداد نسخة إلكترونية
لحولية كلية اللغة العربية بالمنوفية
إعداد وتنفيذ
أ.د/ يوسف محمد فتحي عبد الوهاب
أستاذ ورئيس قسم الأدب والنقد في الكلية

الالتفات
عند ضياء الدين بن الأثير
دراسة نقدية تأصيلية

الدكتور
عبد الحافظ إبراهيم البقرى
الأستاذ المساعد
فى قسم البـلاغة والنقـد

حولية كلية اللغة العربية بالمنوفية، العدد السادس عشر، مطبعة الأخوة الأشقاء ١٤١٨هـ = ١٩٩٨م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، وخاتم النبيين ، سيدنا محمد النبى الأمين . وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعـد

فهذا بحث موضوعه « الالتفات عند ضياء الدين بن الأثير» دراسة نقدية تأصيلية وابن الأثير كما نعلم ، عاش فترة من منتصف القرن السادس الهجرى حتى قرابة منتصف القرن السابع الهجرى (٥٥٨- ٦٣٧هـ)[١] وله منزلته العلمية ومؤلفات عديدة أشهرها كتابه « المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر » وتنم مؤلفاته عن سعة فى الثقافة ، وإحاطة بمختلف علوم اللغة ، وتبحر فى فصيح أساليبها . يقول عنه الشيخ أحمد مصطفى المراغى : « له من التآليف التى تدل على ماله من عظيم الفضل ، وكبير النبل ، وسعة التبحر .. الشئ الكثير ، ومن أجلها قدرًا ، وأشهرها ذكرًا « المثل السائر ، فى أدب الكاتب والشاعر » وهو كتاب جمع فأوعى ، فلم يترك شيئًا يتعلق بصنعة الكتابة إلا ذكره ، إلى شذرات منيفة وتحقيقات فى فنون البلاغة لم يقصد لها غيره ممن ألفوا فى علوم البلاغة »[٢] .

ويقول الدكتور شوقى ضيف أيضًا عن كتابه « المثل السائر » على الرغم من نقده له « يعد خير ما كتب منذ القرن السادس

الهجرى بعيدًا عن مدرسة عبد القاهر وتلاميذه ، لما يتخلله من بعض لفتات جيدة »[٣] .

وقد أتيح له تمكنه من تثقيف نفسه ، وإطلاعه على ما كتب فى علم البيان حتى عصره ، إذ يقول « إن علم البيان لتأليف النظم والنثر بمنزلة أصول الفقه للأحكام وأدلة الأحكام ، وقد ألف الناس فيه كتبًا ، وجلبوا ذهبًا وحطبًا ، وما من تأليف إلا وقد تصفحت شينه وسينه ، وعلمت غثه وسمينه ، فلم أجد ما ينتفع به فى ذلك إلا كتاب الموازنة ، لأبى القاسم الحسين بن بشر الآمدى وكتاب « سر الفصاحة » لأبى محمد بن عبد الله بن سنان الخفاجى[٤] ... بيد أن الرجل – على الرغم من سعة علمه ، وكثرة نتاجه ، لم يتم له الخلق العلمى الذى يفرض على العلماء التواضع والأمانة ، فزها بنفسه كثيرًا ، وعدا على آراء كثير ممن سبقوه ، وعدها من بنات فكره فطار بها تيها وفخرًا ... وغاب عنه أنه زيف كثيرًا من آراء العلماء والبلاغيين والنقاد .

وفى هذا البحث محاولة لعرض ما كتبه فى باب الالتفات والتنبيه على مصدر الآراء والأفكار التى أخذها من أصحابها متجاهلًا ذكرهم ، وناسبًا إياها لنفسه ، وما كان له مبتكرًا .. من آراء .. قلت فيه كلمة الحق ، إذ الدراسة نقدية تأصيلية تعنى برد كل فكر إلى صاحبه فى حيدة ودون تحامل .. وإمعانا فى الإنصاف .. لم أكتف بالإشارة إلى المصدر الذى نقل منه . بل ذكرت الأصل الذى اعتمد عليه بإزاء عبارته ليتسنى للقارئ الحكم وهو مطمئن .

وقد أقمت هذا البحث على مقدمة وجزءين وخاتمة .

فى الجزء الأول عرضت الالتفات عند الشيخ ضياء الدين بن الأثير فى كتابه المثل السائر وعنيت بما جاء فى هذا الكتاب فى هذا الباب درسًا وتحليلًا ونقدًا وتأصيلًا .. لأنه يمثل - بحق - ابن الأثير أسلوبًا وفكرًا ، وخلقًا .. ولم أكتف برد آرائه إلى أصحابها ، بل أضفت إلى ذلك ما من شأنه أن يوضح أسرار الالتفات البلاغية مما جاء عن علمائنا إلى جانب إبداء ميلى إلى ما استمالنى منها مع التعليل لهذا الميل .

وفى الجزء الثانى عرضت ما جاء فى كتاب « الجامع الكبير فى صناعة المنظوم من الكلام والمنثور وفى كتاب كفاية الطالب فى نقد كلام الشاعر والكاتب » ، ولما كان هذان الكتابان فيهما مباينة لأسلوب ابن الأثير فقد رجحت عدم نسبتهما إليه ، إلى جانب أننى لم أعن بمناقشة ما جاء من أمثلة وبيان بلاغة الالتفات فيهما ، نظرًا لأنها لم تختلف عما جاء فى المثل السائر اللهم إلا مباينتها للغة الشيخ ضياء الدين وطبعه - وإلى جانب هذا فإن ما جاء فى « كفاية الطالب » .. اختلف كثيرًا عما جاء فى المثل السائر ، وفى الجامع الكبير من حيث كونه مختصرًا إلى حد كبير كما أنه لا يمثل مرحلة النضج التى كانت عليها الدراسة البلاغية فى عصر ابن الأثير .

وفى الخاتمة نوهت بما لشيخنا ضياء الدين من آراء سلمت له ، وأخرى كان فيها معتديًا على غيره مؤكدًا أن ابن جنى وجار الله الزمخشرى فى طليعة من فتقوا أكمام البيان القرآنى ، كما أن الدرس البلاغى وهو يرصد منابع الفكر ، وأصوله ... ينبغى له أن يتحرر من كل قيد إلا العدل والنصفة متمثلًا قول الله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ﴾[٥] .

وكذلك قوله سبحانه : ﴿ يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا واعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾[٦] .

وتبقى القيمة الخلقية ، من تواضع يزين العلماء ، وأمانة تضاعف الثقة فيهم .. غاية يزكيها هذا البحث ، سائلاً المولى عز وجل أن يجعله خالصًا لوجهه ، وأن ينفع به ، إنه ولى ذلك والقادر عليه ﴿ وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ﴾[٧] .

* * *

(١)

الالتفات فى المثل السائر

جعله النوع الرابع من أنواع مقالته الثانية « فى الصناعة المعنوية » وبدأ حديثه فيه مشيدًا به ، مبينًا مأخذ الاسم الاصطلاحى ، وسبب تسميته بشجاعة العربية قائلًا :

« وهذا النوع وما يليه[٨] هو خلاصة علم البيان التى حولها يدندن ، وإليها تستند البلاغة ، وعنها يعنعن وحقيقته مأخوذة من التفات الإنسان عن يمينه وشماله ، فهو يقبل بوجهة تارة كذا ، وتارة كذا .

وكذلك يكون هذا النوع من الكلام خاصة ، لأنه ينتقل فيه من صيغة إلى صيغة ، كانتقال من خطاب حاضر إلى غائب ، أو من خطاب غائب إلى حاضر ، أو من فعل ماض إلى مستقبل ، أو من مستقبل إلى ماض .

ويسمى أيضًا « شجاعة العربية » وإنما سمى بذلك لأن الشجاعة هى الإقدام ، وذاك أن الرجل الشجاع يركب مالا يستطيعه غيره ، ويتورد ما لا يتورده سواه ، وكذلك هذا الالتفات فى الكلام ، فإن اللغة العربية تختص به دون غيرها من اللغات »[٩] .

الدراسة والتحليل والتأصيل :

ما ذكره فى بدء حديثه من إشادة بالالتفات ، وعده خلاصة علم البيان هو جرى على عادة القوم من عدهم بعض الأساليب هى البلاغة وفى بيانه لمأخذ الاسم الاصطلاحى له من التفات الإنسان عن يمينه وشماله يوضح علاقة المصطلح بالدلالة اللغوية للكلمة وأن

أمره يدور على التحول والانتقال من جهة إلى جهة أخرى وهو فى هذا يكشف عن أهمية هذا الانتقال لقوة الداعى إليه ، ذلك أن الإنسان العاقل لا يلتفت عن يمينه وشماله إلا إذا كان ثمة من الدواعى ما يستحق ذلك كما أنه فى هذا التوضيح غير مسبوق فهو أمر يحسب له .

أما قوله : ويسمى أيضًا « شجاعة العربية » فهو فيها يحاكى أبا الفتح عثمان بن جنى فى كتابه « الخصائص »[١٠] فقد جعل تلك الشجاعة لهذه اللغة بابًا ذكر تحته كثيرًا من وجوه التصرف فى العبارة ، وجعل منها « الحمل على المعنى » الذى يمكن إنضواء الالتفات على ما جاء عند أبي عبيدة معمر ، وابن المعتز تحته .

على أنه لا يتأكد كون هذه التسمية مما اهتدى إليه ابن جنى ، لاحتمال أنه سمعها من بعض شيوخه كأبى على الفارسى - وإن كان صاحب جوهرة الكنز نجم الدين بن الأثير الحلبى يذهب إلى أن ابن جنى هو أول من سماه بذلك[١١] .

وفى بيانه لوجه هذه التسمية ، ذكر معنى الشجاعة وقال إنها الإقدام إذ الشجاع يركب ما لا يستطيعه غيره ، ثم يقول : « وكذلك الالتفات فى الكلام » .

وهو بهذا يقرر قوة المتكلم النفسية وقدرته التى جعلته يقوم على تحويل أسلوب الكلام من طريق إلى آخر ، مخالفًا بذلك ما يقتضيه ظاهر الحال تجاوبًا مع سياق المعنى ، إلى جانب مخالفته ما كان يتوقعه المتلقى وكلا الأمرين ، مخالفة ظاهر الحال ، والعدول عما كان يتوقعه المتلقى بغية إثارة اهتمامه بموطن التحول من صيغة إلى أخرى ، كلا الأمرين إقدام لا يكون إلا من إنسان خبر النفوس ،

وأخذ بناصية اللغة ، وملك أزمة الأساليب ، ومن ثم فهو يركب ما لا يستطيعه غيره .

بيد أنى أرى أن التوجيه كان ينبغى أن يولى اللغة نفسها اهتمامًا ببيان قدرتها على الإبانة عن معان . من خلال التصرف فى أساليبها من حذف وإضمار وعدول من طريق إلى آخر فى أساليب التعبير .

أما مقولة « إن اللغة العربية تختص به دون غيرها من اللغات » فهى دعوى يعوزها الدليل ، لأن الحكم بذلك يستوجب الاطلاع على كل لغات البشر ، والتأكد من خلوها من الالتفات نهجًا وطريقًا من طرق التعبير .

وإذا كانت اللغة وسيلة إبانة عما يعتلج فى نفوس البشر فهل اختص العرب وحدهم من بين الشعوب بأنهم الذين يعدلون عن مقتضى الظاهر فى كلامهم ؟

إن دعوى اختصاص العربية بأسلوب الالتفات لا تجد لها ما يؤيدها من الواقع .

على أننا نوقن بتفوق العربية على كل اللغات بما شرفت به من كونها وسعت كتاب الله المعجز ، لكننا نود أن يكون حديثنا فى انفرادها بطريق من طرق التعبير مشفوعًا بدليل .

أقسام الالتفات وأسراره البلاغية

قسم ابن الأثير الالتفات إلى ثلاثة أقسام : الرجوع من الغيبة إلى الخطاب ومن الخطاب إلى الغيبة ، والرجوع من فعل ماض إلى مستقبل ، أو من مستقبل إلى ماض ، ثم تناول كل قسم وحده ، وبين الأسرار البلاغية لكل قسم ، مع حشد هائل من الأمثلة ، ويبدأ بذكر القسم الأول بقوله :

« القسم الأول فى الرجوع من الغيبة إلى الخطاب ومن الخطاب إلى الغيبة »

أعلم أن المنتمين إلى هذا الفن إذا سئلوا عن الانتقال عن الغيبة إلى الخطاب وعن الخطاب إلى الغيبة قالوا « كذلك كانت عادة العرب فى أساليب كلامها ، وهذا القول هو عكاز العميان ، كما يقال ، ونحن إنما نسأل عن السبب الذى قصدت العرب ذلك من أجله[١٢] .

وحديثه فى هذا القسم يجعله ستة أنواع بمقتضى القسمة العقلية ، إذ الخطاب يراد به عنده خطاب النفس (التكلم) وخطاب غير النفس ممن يكون حاضرًا وبيان هذه الأقسام على النحو التالى :

١ - الرجوع من الغيبة إلى خطاب النفس (التكلم) .

٢ - الرجوع من الغيبة إلى خطاب الغير .

٣ - الرجوع من خطاب النفس إلى الغيبة .

٤ - الرجوع من خطاب الغير إلى الغيبة .

٥ - الرجوع من خطاب الغير إلى خطاب النفس .

٦ - الرجوع من خطاب النفس إلى خطاب الغير .

ويرى أن عامة البلاغيين لا يذكرون سرًا للالتفات إلا أنه عادة للعرب ، ومن ثم يقتدون بهم ، ويقلل من شأن ذلك السر ، إذ يجعله عكاز العميان .

هكذا صار البلاغيون قبله عميًا لا يهتدون ، هكذا جافى ابن الأثير نهج العلماء فى أمانة النقل لكلام جار الله الزمخشرى ، واقتطع أجزاء منه ، ليتيح لنفسه التحامل عليه ، ويفسح المجال

لادعائه الفضل لنفسه فى إدراك بلاغة أسلوب الالتفات . فجر عليه حرصه على الاستئثار بفضل السبق أن يشوه عبارة الزمخشرى ، وأن يسئ إليه مرة فى فهمه لعبارته ، وأخرى فى اتهامه بالقصور فى إدراك بلاغة أسلوب الالتفات ، وأهل العلم قبل ابن الأثير وبعده يعرفون لجار الله قدره - ولا سيما فى مجال فهم أسرار البيان القرآنى .. وقد قال عنه ابن خلكان :

« كان إمام عصره غير مدافع ، تشد إليه الرحال فى فنونه »(١٣)

كما قالت عنه ياقوت : « كان إمامًا فى التفسير والنحو واللغة والأدب ، واسع الفضل ، كبير العلم ، متفننا فى علوم شتى »(١٤) .

ونحن نورد كلام جار الله الزمخشرى - رحمه الله - فى بلاغة الالتفات لنرى - بالدليل - ما فعله به ابن الأثير ، يقول رحمه الله عند تفسيره لقول الله تعالى : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ .

« فإن قلت : لم عدل عن لفظ الغيبة إلى لفظ الخطاب ؟

قلت : هذا يسمى الالتفات فى علم البيان ، قد يكون من الغيبة إلى الخطاب ، ومن الخطاب إلى الغيبة ، ومن الغيبة إلى التكلم ...

وذلك على عادتهم فى الكلام ، وتصرفهم فيه ، ولأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى إسلوب ، كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع ، وإيقاظًا للإِصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد ، وقد تختص مواقعة بفوائد »(١٥) .

تلك عبارة جار الله - رحمه الله - تدفع عنه عادية ابن الأثير وتنطق بأنه أساء إليه حين أغفل قوله : « وقد تختص مواقعه بفوائد » التى هى مدار البحث حول بلاغة هذا الأسلوب .

فإذا كان جار الله قد ذكر أن الالتفات افتنان فى الكلام وتصرف فيه ، فقد بين أثره فى قوله « كان ذلك أحسن تطرية (أى تجديدًا) لنشاط السامع ، وإيقاظًا للإِصغاء إليه» .

ذلكم هو الأثر العام للالتفات ، إنه يجذب المتلقى إلى موقعه حتى يكون منه إصغاء إليه ، والإِصغاء استماع يميل معه السامع بكليته إلى ما يلقى إليه .

أما السر البلاغى فقد تركه جار الله يفهم من السياق حيث قال : « وقد تختص مواقعه بفوائد » وإذا كانت « قد » حين تدخل على المضارع تفيد التقليل أو التكثير[١٦] تبعًا للسياق الذى وردت فيه فإنها هنا للتكثير ، لما نعلمه من أن المتكلم البليغ لا ينتقل فى كلامه من أسلوب إلى آخر إلا لداع استدعاه المقام ، ومن ثم لا يخلو التفات من فائدة ، فصح أن يعبر جار الله عن هذه الكثرة بكلمة « قد » داخلة على الفعل المضارع « تختص »كما أن استعماله للجمع الأقصى فى كلمة « فوائد » دلالة على أن الأسرار البلاغية لهذا الأسلوب لا حصر لها - كما أن أغراض المتكلم لا حصر لها أيضًا .

وقد بين ابن أبى الحديد مدى حيف ابن الأثير على كلام الزمخشرى وأبطل قوله : « وليس الأمر كما ذكر ، لأن الانتقال فى الكلام من أسلوب إلى أسلوب إذا لم يكن إلا تطرية لنشاط السامع ، وإيقاظًا للإِصغاء إليه ، فإن ذلك دليل على أن السامع يمل من أسلوب واحد ، فينتقل إلى غيره ، ليجد نشاطًا للاستماع ، وهذا قدح فى الكلام ، لا وصف له ، لأنه لو كان حسنًا لما مل »[١٧] .

حيث قال : لم قلت أنه إذا كان حسنًا لا يمل ، وهل الملال إلا من الملذ [١٨] ؟

كما ندرك بطلان الافتراض الذى افترضه قائلًا : « ولو سلمنا إلى الزمخشرى ما ذهب إليه ، لكان إنما يوجد ذلك فى الكلام المطول ، ونحن نرى الأمر بخلاف ذلك ، لأنه قد ورد الانتقال من الغيبة إلى الخطاب ، ومن الخطاب إلى الغيبة فى مواضع كثيرة من القرآن الكريم ، ويكون مجموع الجانبين معًا عشرة ألفاظ أو أقل من ذلك »[١٩] .

إذ أنه افتراض قام على باطل ، لأنه ليس فى كلام جار الله ما يفهم منه من قريب أو بعيد أن الالتفات يكون فى كلام طال حتى مل السامع فاحتجنا إلى ما يزيل ملاله .

وبالإضافة إلى ما تقدم نطالع مبلغ التجنى وسوء الفهم لكلام جار الله فى قول ابن الأثير « ومفهوم قول الزمخشرى فى الانتقال من أسلوب إلى أسلوب إنما يستعمل قصدًا للمخالفة بين المنتقل عنه والمنتقل إليه ، لا قصدًا لاستعمال الأحسن ، وعلى هذا فإذا وجدنا كلامًا قد استعمل فى جميعه الإيجاز ، ولم ينتقل عنه ، أو استعمل فى جميعه الإطناب ، ولم ينتقل عنه ، وكان كلا الطرفين واقعًا موقعه .. قلنا : هذا ليس بحسن ، إذ لم ينتقل فيه من أسلوب ، وهذا قول فيه ما فيه .

وما أعلم كيف ذهب على مثل الزمخشرى - مع معرفته بفن الفصاحة والبلاغة ؟!! [٢٠]

هكذا صار جار الله : وهو أول من طبق نظم عبد القاهر فى الكشف عن دقائق التعبير القرآنى - هكذا انتهت به الحال لدى

ضياء الدين بن الأثير حتى أنه ليعجب مما غاب عنه من الأسرار البلاغية فى هذا الباب .

والذى لا يحتمل الشك أن عبارة الزمخشرى ليس فيها حصر الانتقال من أسلوب إلى آخر فى قصد المخالفة ، وإنما هذا افتراء من ابن الأثير عليه .

وغاية هذا الافتراء - كما سبق - أن ذكرنا - إفساح المجال لزهو واعتداد يحرص ابن الأثير دائمًا عليهما - وإن كان ذلك على ادعاء فكر غيره ، ولذا نراه بعد ذلك مباشرة يجعل الوصول إلى بلاغة ذلك الانتقال من عندياته التى سبق إليها فيقول : « والذى عندى فى ذلك أن الانتقال من الخطاب إلى الغيبة ، أو من الغيبة إلى الخطاب ، لا يكون إلا لفائدة اقتضته ، وتلك الفائدة أمر وراء الانتقال من أسلوب إلى أسلوب ، غير أنها لا تحد بحد ، ولا تضبط بضابط »[٢١] ...

ولسنا الآن فى حاجة إلى بيان أن هذا الكلام هو بعينه مفاد عبارة جار الله : « وقد تختص مواقعه بفوائد » ويحاول ابن الأثير - بعد ذلك - أن يبين الأسرار البلاغية للالتفات فى هذا الضرب : من الغيبة إلى الخطاب ومن الخطاب إلى الغيبة ، ويحرص على أن يكون ذلك من خلال نماذج تطبيقية ، فيعرض - أول ما يعرض - سورة الفاتحة ، ويبين ما فيها من التفات وأسراره ، وكل ما يقوله يهيئ قارئه ليتلقاه على أنه مما هو له حيث صدر الكلام بقوله : « والذى عندى فى ذلك ...» وقوله : « فإنا قد رأينا الانتقال من الغيبة إلى الخطاب قد استعمل لتعظيم شأن المخاطب ...» ولنطالع مقالته فى ذلك ، ثم نذكر بعدها المصدر الذى أخذ عنه هذا الذى ينسبه إلى نفسه ، فإلى مقالته حيث يقول : « ... فإنا قد رأينا

الانتقال من الغيبة إلى الخطاب قد استعمل لتعظيم شأن المخاطب ، ثم رأينا ذلك بعينه - وهو ضد الأول - قد استعمل فى الانتقال من الخطاب إلى الغيبة ، فعلمنا حينئذ أن الغرض الموجب لاستعمال هذا النوع من الكلام يجرى على وتيرة واحدة ، وإنما هو مقصور على العناية بالمعنى المقصود ، وذلك المعنى يتشعب شعبًا كثيرة لا تنحصر ، وإنما يؤتى بها على حسب الموضع الذى ترد فيه .

وسأوضح ذلك فى ضرب من الأمثلة الآتى ذكرها :

فأما الرجوع من الغيبة إلى الخطاب فكقوله تعالى فى سورة الفاتحة : ﴿ الحمد لله رب العالمين * الرحمن الرحيم * مالك يوم الدين * إياك نعبد وإياك نستعين * اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم ﴾ .

هذا رجوع من الغيبة إلى الخطاب ، ومما يختص به هذا الكلام من الفوائد قوله : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ بعد قوله : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ فإنه إنما عدل فيه من الغيبة إلى الخطاب ، لأن الحمد دون العبادة ، ألا تراك تحمد نظيرك ولا تعبده ؟ فلما كانت الحال كذلك استعمل لفظ ﴿ الحمد ﴾ لتوسطه مع الغيبة فى الخبر ، فقال : ﴿ الحمد لله ﴾ ولم يقل : الحمد لك ، ولما صار إلى العبادة التى هى أقصى الطاعات قال : ﴿ إياك نعبد ﴾ فخاطب بالعبادة إصراحًا بها ، وتقربًا منه - عز اسمه - بالانتهاء إلى محدود منها .

وعلى نحو من ذلك جاء آخر السورة ، فقال : ﴿ صراط الذين أنعمت عليهم ﴾ فأصرح الخطاب لما ذكر النعمة ، ثم قال : ﴿ غير المغضوب عليهم ﴾ عطفًا على الأول ، لأن الأول موضع التقرب من الله بذكر نعمه ، فلما صار إلى ذكر الغضب جاء باللفظ

منحرفًا عن ذكر الغاضب ، فأسند النعمة إليه لفظًا ، وزوى عنه لفظ الغضب تحنُّنًا ولطفًا ... وهذه السورة قد انتقل فى أولها من الغيبة إلى الخطاب ، لتعظيم شأن المخاطب ، ثم انتقل فى آخرها من الخطاب إلى الغيبة لتلك العلة بعينها ، وهى تعظيم شأن المخاطب أيضًا ، لأن مخاطبة الرب - تبارك وتعالى - بإسناد النعمة إليه تعظيم لخطابه ، وكذلك ترك مخاطبته بإسناد الغضب إليه تعظيم لخطابه »(٢٢) .

هكذا وضح ابن الأثير سر بلاغة الالتفات فى فاتحة الكتاب متجاهلًا من نقله عنه ، ليوقع فى روع قارئه أن ذلك من عندياته .. ونظرة على ما ذكره ابن جنى فى كتابه « المحتسب فى تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها » فى بيانه الأسرار البلاغية للالتفات فى سورة الفاتحة .. تؤكد لنا أن ما ردده ابن الأثير .. هو هو كلام ابن جنى معنى ، كما أنه هو أيضًا فى بعض عباراته نصًا ، ونضع ما قاله ابن جنى بين أيدينا ليكون دليلًا ملموسًا ، فقد قال - رحمه الله - تعليقًا على الالتفات فى قوله تعالى : ﴿ واتقوا يومًا يرجعون فيه إلى الله ﴾(٢٣) فى قراءة الحسن « يرجعون » « بياء مضمومة » وقد شاع واتسع عنهم حمل ظاهر اللفظ على معقود المعنى ، وترك الظاهر إليه ، وذلك كتذكير المؤنث ، وتأنيث المذكر ، وإفراد الجمع ، وجمع المفرد ، وهذا فاش عنهم ، وقد أفردنا له بابًا فى كتابنا فى الخصائص ، ووسمناه هناك بشجاعة العربية ، وكأنه - والله أعلم - إنما عدل فيه عن الخطاب إلى الغيبة فقال : « يرجعون » رفقًا من الله - سبحانه - بصالحى عباده المطيعين لأمره »(٢٤) .

وبعد توضيحه لمعنى الرفق فى الالتفات هنا يعقب قائلًا : « وليس ينبغي أن يقتصر فى ذكر الانتقال من الخطاب إلى الغيبة ، ومن الغيبة إلى الخطاب بما عادة توسط أهل النظر أن يفعلوه ، وهو

قولهم : إن فيه ضربًا من الاتساع فى اللغة لانتقاله من لفظ إلى لفظ . وهذا ينبغى أن يقال إذا عرى الموضع من غرض معتمد ، وسِرٌّ على مثله تنعقد اليد »[٢٥] ويضيف ابن جنى قائلًا : « فمنه قوله تعالى : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ هذا بعد قوله : ﴿ الحمد لله رب العالمين * الرحمن الرحيم ﴾ ، فليس ترك الغيبة هنا إتساعًا وتصرفًا ، بل هو لأمر أعلى ، ومهم من الغرض أعنى ، وذلك أن الحمد معنى دون العبادة ، ألا تراك تحمد نظيرك ولا تعبده ، لأن العبادة غاية الطاعة ، والتقرب بها هو النهاية والغاية ، فلما كان كذاك استعمل لفظ الحمد لتوسطه مع الغيبة ، فقال : « الحمد لله » ولم يقل لك ، ولما صار إلى العبادة التى هى أقصى أمد الطاعة قال : ﴿ إياك نعبد ﴾ فخاطب بالعبادة إصراحًا بها ، وتقربًا منه – عز اسمه – بالانتهاء إلى محدوده منها .

وعلى نحو منه جاء آخر السورة ، فقال : ﴿ صراط الذين أنعمت عليهم ﴾ فأصرح بالخطاب لما ذكر النعمة ، ثم قال : ﴿ غير المغضوب عليهم ﴾ ولم يقل غير الذين غضبت عليهم ، وذلك أنه موضع تقرب من الله بذكر نعمه ، فلما صار إلى ذكر الغضب قال : ﴿ غير المغضوب عليهم ﴾ حتى كأنه قال : غير الذين غضبت عليهم ، فجاء اللفظ منحرفًا به عن ذكر الغاضب ، ولم يقل غير الذين غضبت عليهم كما قال : ﴿ الذين أنعمت عليهم ﴾ فأسند النعمة إليه لفظًا ، وزوى عنه لفظ الغضب تحسنًا ولطفًا[٢٦] . ذاك كلام أبى الفتح عثمان بن جنى المتوفى سنة ٣٩٢هـ[٢٧] .. هذا الذى سبق (بفتح السين) إليه فى بيان ، الالتفات فى سورة الفاتحة ... نقله عن ابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٧هـ ولم ينسبه إلى صاحبه ، لكن هذا لا يطمس حقيقة أن أبا الفتح هو أبو عذر هذا الفتح البيانى .

وما قاله أبو الفتح فى بيان سر الانتقال فى قوله - سبحانه - ﴿ غير المغضوب عليهم ﴾ يبدو فيه : حسن الأدب مع الله - عز وجل - فى عدم خطابه بالغضب ، تنزيهًا له عن نسبة الشر إليه ، على نحو ما حكاه القرآن الكريم من ثناء إبراهيم - عليه السلام - على ربه - عز وجل - فى قوله سبحانه : ﴿ الذى خلقنى فهو يهدين * والذى هو يطعمنى ويسقين * وإذا مرضت فهو يشفين ﴾[٢٨] . إذ نرى فيه « نسبة المرض إلى نفسه ، والشفاء إلى الله - تعالى - مع أنهما منه ، لمراعاة حسن الأدب[٢٩] ، كما قال الخضر عليه السلام : « فأردت أن أعيبها »[٣٠] وقال - فأراد بك أن يبلغا أشدهما[٣١] .

وكما جاء أيضًا عن نبينا محمد - ﷺ - فى ثنائه على ربه فى دعائه فى قيام الليل : « لبيك وسعديك ، والخير كله فى يديك ، والشر ليس إليك »[٣٢] حيث نفى أن يكون الشر إليه تأدبًا معه - جل جلاله -.

على أن الشأن فى أهل العلم - فى غالب الأمر - أن يفيدوا ممن سبقوهم ، ويضيفوا جديدًا إلى ما قالوه ... كما نرى فيما جاء فى فاتحة الكتاب من بيان لبلاغة الالتفات فيها لدى جار الله الزمخشرى حيث قال :

« ومما اختص به هذا الموضوع أنه لما ذكر الحقيق بالحمد ، وأجرى عليه تلك الصفات العظام ، تعلق الأمر بمعلوم عظيم الشأن حقيق بالثناء وغاية الخضوع والاستعانة فى المهمات ، فخوطب ذلك المعلوم المتميز بتلك الصفات فقيل إياك يا من هذه الصفات صفاته ، تخص بالعبادة والاستعانة ، لا نعبد غيرك ولا نستعينه ، ليكون

الخطاب أدل على أن العبادة له لذلك التميز لا تحق العبادة إلا به[٣٣] .

فالزمخشرى - رحمه الله - نظر إلى إعداد النفس بالحكاية للمواجهة بالخطاب ، ففى كلامه ما يشير إلى « تصاعد الإِحساس بالجلال ، حتى تخلص النفس فى مراحل عروجها ، من شئونها الأرضية ، فتشافه الحق ، وتعلق هناك غاية العبودية والاستسلام[٣٤] .

ففى كلام جار الله إضافة جديدة إلى ما جاء عن ابن جنى - وهكذا إذا طالعنا أسرار ذلك الالتفات عند غيرهما كالفخر الرازى[٣٥] - رحمه الله - وكذلك أبو يعقوب السكاكى[٣٦] تأكد لنا إطراد تجدد الفكر البلاغى بتعاقب العلماء ، بيد أن ضياء الدين ابن الأثير اكتفى بما قاله ابن جنى ، ووقف عنده ، فنقله ، وليته إذ نقله نسبه إلى صاحبه ، بل إنه تجاهل تلك النسبة .. زاعمًا أن قارئه يسلم له بهذه الأفكار التى أخذها عن غيره .

وبعد ذلك يعرض ابن الأثير شاهدًا آخر للالتفات من الغيبة إلى الخطاب ، وذلك قوله تعالى حكاية عن الذين ادعوا - لله تعالى - ولدًا - تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا - حيث يقول سبحانه : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدًا * لقد جئتم شيئًا إدًا ﴾[٣٧] ، قال : « وإنما قال : « لقد جئتم وهو خطاب للحاضر ، بعد قوله : ﴿ وقالوا ﴾ وهو خطاب للغائب لفائدة حسنة وهى زيادة التسجيل عليهم بالجراءة على الله - تعالى - والتعرض لسخطه ، وتنبيه لهم على عظم ما قالوه ، كأنه يخاطب قومًا حاضرين بين يديه منكرًا عليهم ، موبخًا لهم »[٣٨] .

إن دلالة الالتفات هنا بمخاطبة من أجرموا هذا الجرم الذى لا يناظر جرم ادعاء الولد للرحمن - دلالته مواجهتهم بما اقترفوا تفظيعًا

لجرمهم ، وإبلاغًا فى توبيخهم وقد أسهم فى تقبيح هذا الجرم أيضًا كون جملة ﴿ لقد جئتم شيئًا إدا ﴾ مستأنفة لبيان ما اقتضته جملة .. وقالوا : ﴿ أتخذ الرحمن ولدًا ﴾ . من التشنيع والتفظيع[٣٩] كما زاد هذه الدعوى تهويلًا وتفظيعًا تنكير ما عبر به عنها « شيئا » ثم وصفه بكونه « إدا » تكاد السموات يتفطرن منه ، وتنشق الأرض وتخر الجبال هدًّا » .

وما كان أطيب ما قال ضياء الدين ابن الأثير فى بيانه سر بلاغة الالتفات هنا ، لولا أنه قد سبقه إليه جار الله الزمخشرى ، حيث يقول : (... وفى قوله لقد جئتم وما فيه من المخاطبة بعد الغيبة – وهو الذى يسمى الالتفات فى علم البلاغة – زيادة تسجيل عليهم بالجرأة على الله تعالى ، والتعرض لسخطه وتنبيه على عظم ما قالوا »[٤٠] .

إن العبارة التى قالها الزمخشرى ... لم يطرأ عليها تغيير لدى ابن الأثير سوى أنه قدم لها بقوله « وإنما قيل : لقد جئتم . « وهو خطاب للحاضر ، بعد قوله : « وقالوا وهو خطاب للغائب لفائدة حسنة » ثم عقب بعد ما ذكرها قائلًا .. « كأنه يخاطب قومًا حاضرين بين يديه منكرًا عليهم وموبخًا لهم » .

وطوى ذكر جار الله الذى أخذ عنه تلك الفائدة الحسنة وكأنها من مبتكراته .

ومن النماذج التى ساقها للالتفات من الغيبة إلى الخطاب أيضًا والخطاب هنا خطاب النفس حسبما يقول ، وهو التكلم ، من هذا النوع ذكر قول الله تعالى فى مطلع سورة الإسراء قائلًا[٤١] « ومما جاء من الالتفات مرارًا على قصر متنه ، وتقارب طرفيه ، قوله تعالى أول سورة بنى إسرائيل : ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلًا

من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا ، إنه هو السميع البصير » .

فقال أولًا : « سبحان الذى أسرى » بلفظ الواحد ، ثم قال : « الذى باركنا » بلفظ الجمع ، ثم قال : « إنه هو السميع البصير » وهو خطاب غائب .

ولو جاء الكلام على مساق الأول لكان : ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلًا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى بارك حوله ليريه من آياته إنه هو السميع البصير ﴾ وهذا جميعه يكون معطوفًا على أسرى « فلما خولف بين المعطوف والمعطوف عليه فى الانتقال من صيغة إلى صيغة ، كان ذلك اتساعًا وتفننا فى أساليب الكلام ، ولقصد آخر معنوى هو أعلى وأبلغ .

وسأذكر ما سنح لى فيه فأقول :

لما بدأ الكلام بسبحان ردفه بقوله : ﴿ الذى أسرى ﴾ إذ لا يجوز أن يقال « الذى أسرينا فلما جاء بلفظ الواحد ، والله – تعالى – أعظم العظماء ، وهو أولى بخطاب العظيم فى نفسه الذى هو بلفظ الجمع استدرك الأول بالثانى ، ثم قال : « لنريه من آياتنا » فجاء بذلك على نسق « باركنا » ثم قال « إنه هو » عطفًا على « أسرى » وذلك موضع متوسط ، فخرج بهما عن خطاب العظيم فى نفسه إلى خطاب غائب .

فانظر إلى هذه الالتفاتات المترادفة فى هذه الآية الواحدة التى جاءت لمعان اختصت بها ..» .

ذلك ما قاله ابن الأثير فى هذا الالتفات بينه فى مواطنه ، وعلله بقوله : « كان ذلك اتساعًا وتفننًا فى أساليب الكلام ، ولمقصد أخر

معنوى ..» كما علق عليه بعد أن ذكره قائلًا « فانظر إلى هذه الالتفاتات المترادفة فى هذه الآية الواحدة ، التى جاءت لمعان اختصت بها » .

فقد أشار إلى الغرض المعنوى فى أول كلامه فى الآية كما أشار إليه أيضًا فى آخره ، لكنه وقف عند هذه الإشارة ، ولم يحاول الكشف عن ذلك المعنى الذى هو لب بلاغة الالتفات ، فصنيعه هذا مجرد وصف للكلام ، دون تفسير له ، وليت هذا الذى ذكره كان مما سنح له - على حد قوله !

إنه قد سلك - فيما قال - سبيل جار الله الزمخشرى - الذى سبقه إلى هذا البيان إذ يقول « ولقد تصرف الكلام على لفظ الغائب والمتكلم ، فقيل : « أسرى به » ثم « باركنا » « ليريه » بالياء فى الفعل « يرى » على قراءة الحسن ، ثم « من آياتنا » ثم « إنه هو » وهى طريقة الالتفات التى هى من طرق البلاغة [٤٢] .

وبلاغة الالتفات فى الآية الكريمة هى بعامة الإشعار بتعظيم المسرى إليه حيث وصف بقوله تعالى .. باركنا حوله « بنون العظمة التى تدل على عظمة الفعل ، إلى جانب عظمة الآيات التى أريها - ﷺ ، وفى هذا كله إعلاء من قدر المسرى به وإظهار لمزيد عظيم الاحتفاء به . والآية الكريمة حافلة بوسائل التعبير عن تعظيم هذه المناسبة قصدًا إلى تعظيمه عليه السلام - من استفتاح للحدث بكلمة « سبحان » تعجيبًا للسامعين ، والتعجب هنا من الخبر المتحدث عنه[٤٣] .

كما أن التعبير عن الذات العلية بطريق الموصول دون الاسم العلم للتنبيه على ما تفيده صلة الموصول من الإيماء إلى وجه هذا التعجب والتنويه وسببه[٤٤] والتعبير بالفعل « أسرى » دون

« سرى » ... للتلويح إلى أن الله - تعالى - كان مع رسوله فى إسرائه بعنايته وتوفيقه(٤٥) .

هذا إلى جانب ما تميز به الالتفات فى قوله تعالى : « باركنا .. لنريه من آياتنا » من اللطائف منها « أنه لما استحضرت الذات العلية بجملة التسبيح ، وجملة الموصولية صار مقام الغيبة مقام مشاهدة ، فناسب أن يغير الإضمار إلى ضمائر المشاهدة ، وهو مقام التكلم » .

ومنها الإيماء إلى أن النبى - ﷺ - عند حلوله بالمسجد الأقصى قد انتقل من مقام الاستدلال على عالم الغيب ، إلى مقام مصيره فى عالم المشاهدة ومنها التوطئة والتمهيد إلى محمل معاد الضمير فى قوله « إنه هو السميع البصير » فيتبادر عود ذلك الضمير إلى غير من عاد إليه ضمير « نريه » لأن الشأن تناسق الضمائر فقوله : « إنه هو السميع البصير » الأظهر أن الضميرين عائدان إلى النبى - ﷺ - قاله بعض المفسرين واستقر به الطيبى ، ولكن جمهرة المفسرين على أنه عائد إلى الله تعالى ولعل احتماله للمعنيين مقصود » .

وقد تجئ الآيات محتملة عدة معان ، واحتمالها مقصود تكثيرًا لمعانى القرآن ليأخذ كل منه على مقدار فهمه »(٤٦) تلك بعض دلالات الالتفات فى هذا الموضع الذى استهلت به سورة الإسراء .

ونموذج آخر يعرضه شيخنا ضياء الدين بن الأثير لهذا النوع من الالتفات إذ يقول : « ومما ينخرط فى هذا السلك .. الرجوع من خطاب الغيبة إلى خطاب النفس ، كقوله تعالى : ﴿ ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعًا أو كرها قالتا أتينا طائعين فقضاهنَّ سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء

أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظًا ذلك تقدير العزيز العليم ﴾[٤٧] .

وهذا رجوع من الغيبة إلى خطاب النفس ، فإنه قال : « وزينا » بعد قوله « ثم استوى » وقوله « فقضاهُنَّ » و « أوحى » والفائدة فى ذلك أن طائفة من الناس غير المتشرعين يعتقدون أن النجوم ليست فى سماء الدنيا ، وأنها ليست حفظًا ولا رجومًا فلما صار الكلام إلى ها هنا عدل به عن خطاب الغائب إلى خطاب النفس ، لأنه مهم من مهمات الاعتقاد ، وفيه تكذيب للفرقة المكذبة المعتقدة بطلانه » [٤٨] .

لا ننكر أن بيان ضياء الدين بن الأثير لبلاغة الالتفات هنا .. بيان مستجاد ، حيث جعله أمرًا مرتبطًا بالعقيدة وهدفًا لما كان باطلًا من معتقدات .

ونضيف إلى ما قاله أن الالتفات فى الآية الكريمة « وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظًا » ... هو « لإبراز مزيد العناية بالأمر »[٤٩] أى أمر الزينة وإخال العناية بالزينة هنا ، وهى مصابيح تهدى فى الظلم تنبيهًا إلى أن الزينة ركن رئيس فى خلق الله تعالى وقد صرح بذلك فى آيات أخرى » .

« إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب »[٥٠] .

« ولقد جعلنا فى السماء بروجًا وزيناها للناظرين »[٥١] .

« ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجومًا للشياطين »[٥٢] .

« والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة »[٥٣] .

فليست الزينة فى الكون - إذن - أمرًا غير ذى بال ، بل هى أساس فيه ، قد قصد إليه ، وأراد المولى - أن يشعر العالمين بكونه مقصودًا إليه ، معنيًا به ، فأسنده - سبحانه - إلى نفسه بنون العظمة .

وليس بخفى أن تخصيص السماء الدنيا بهذه الزينة بعد قوله - سبحانه : ﴿ وأوحى فى كل سماء أمرها ﴾ هو من عطف الخاص على العام ، ولعل نكتته البلاغية أنه « لما عم خص التى تلينا إشارة إلى تشريفنا »(٥٤) .

وينتقل شيخنا ضياء الدين بعد ذلك إلى نوع آخر من الصور التى يجئ عليها الالتفات ، وقد سبق له أن عرض نماذج له من الغيبة إلى خطاب الغير ، ومنها إلى التكلم وهو ما يطلق عليه عنده خطاب النفس .. فيعرض الالتفات من التكلم إلى الخطاب وأطلق عليه أنه « رجوع من خطاب النفس إلى خطاب الجماعة »(٥٥) ويستشهد له بقوله تعالى : ﴿ ومالى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون »(٥٦) ويقول فى بيانه بلاغة الالتفات فى هذه الآية الكريمة « وإنما صرف الكلام عن خطاب نفسه إلى خطابهم ، لأنه أبرز الكلام لهم فى معرض المناصحة وهو يريد مناصحتهم ليتلطف بهم ، ويداريهم ، لأن ذلك أدخل فى إمحاض النصح ، حيث لا يريد لهم إلا ما يريد لنفسه ، وقد وضع قوله ﴿ ومالى لا أعبد الذى فطرنى ﴾ مكان قوله : ﴿ وما لكم لا تعبدون الذى فطركم ﴾ ألا ترى إلى قوله ﴿ وإليه ترجعون ﴾ ولولا أنه قصد ذلك لقال : الذى فطرنى وإليه أرجع ، وقد ساق ذلك إلى أن قال : ﴿ إنى آمنت بربكم فاسمعون ﴾(٥٧) .

ما قاله فى صرف المعنى من التكلم إلى الخطاب معناه انتهاج الداعى إلى الله سبيل الحكمة والموعظة الحسنة ، إذ أنكر على نفسه عدم عبادة من خلقه وفطره ليمهد بهذا التلطف الذى رفض فيه مواجهتهم بترك عبادة من فطرهم - إلى استماعهم واستجابتهم لدعوته إياهم بعد إلى الإيمان بالبعث فى مخاطبتهم بقوله : ﴿ وإليه ترجعون ﴾ وهو نصح المشفق الذى يتدرج بقومه إلى ما ينفعهم » .

وهو فهم جميل للبيان القرآنى ، بيد أن الشيخ ضياء الدين نقل فيه عن الزمخشرى نقلًا ، إذ يقول جار الله : « أبرز الكلام فى معرض المناصحة لنفسه ، وهو يريد مناصحتهم ليتلطف بهم ويداريهم ، لأنه أدخل فى إمحاض النصح حيث لا يريد لهم إلا ما يريد لروحه ، ولقد وضع قوله « ومالى لا أعبد الذى فطرنى » مكان قوله « وما لكم لا تعبدون الذى فطركم » ألا ترى إلى قوله « وإليه ترجعون » ولولا أنه قصد ذلك لقال : الذى فطرنى وإليه أرجع وقد ساقه ذلك المساق إلى أن قال إنى آمنت بربكم فاسمعون »(٥٨) .

أى فرق بين ما قاله ابن الأثير وما قاله جار الله وبينهما قرن من الزمان ؟

يضاف إلى النقل عن الزمخشرى فى تجاهل له .. إيهام القارئ أن ما قاله هو من الدقائق التى اختص بفهمها حيث ينهى كلامه مخاطبًا القارئ .

« فانظر أيها المتأمل إلى هذه النكت الدقيقة التى تمر عليها فى آيات القرآن الكريم ، وأنت تظن أنك فهمت فحواها ، واستنبطت رموزها »(٥٩) .

على أن الالتفات فى هذا الموضع قد تعددت الآراء فيه ، فقد قيل ... إن الضميرين (أى ضمير المتكلم فى « مالى » والمخاطبين فى « ترجعون » للمتكلم ، ولكنه عبر ثانيًا عن الذات المتكلمة بضمير المخاطبين ، ففيه التفات ، ومقتضى الظاهر « أرجع »[٦٠] .

كما قيل : « إن الضميرين للمخاطبين فكان مقتضى الظاهر أن يقال « وما لكم لا تعبدون الذى فطركم وإليه ترجعون » فعدل عن مقتضى الظاهر فى الأول ، وأوقع ضمير المتكلم موقع الخطاب ، ثم عبر بعد ضمير التكلم بضمير الخطاب ، فقد اتحد المعبر والمعبر عنه – وإن اختلفت العبارة ، ثم عبر ثانيًا بطريق الخطاب ، وهذا التفات وهذا القول هو التحقيق ، وذلك لأن قوله « ومالى لا أعبد الذى فطرنى « تعريض بالمخاطبين » ، لأن المقصود وعظهم وزجرهم على عدم الإيمان ، فهم المقصودون بالذات من ذلك القول . وعلى هذا التحقيق ففى قوله « ومالى » التفات على مذهب السكاكى فقط ، لأنه تعبير على خلاف مقتضى الظاهر ، وفى قوله ﴿ وإليه ترجعون ﴾ التفات على المذهبين[٦١] .

هذان رأيان فى هذا الالتفات وضحهما العلامة الدسوقى فى بسطه لكلام السعد فى شرحه « مختصر السعد على متن التلخيص » ثم يضيف العلامة الدسوقى رأيًا ثالثًا هو أجدر بالتقدير لما تميز به من ربط الآية بسياقها فيقول : « ولا وجه للتخصيص بالسكاكى (أى فى جعل « ومالى » عدولًا عن (ومالكم) ، بل فى قوله : « ومالى » التفات عند الجمهور أيضًا ، إذ قد سبق طريق الخطاب فى قوله « اتبعوا المرسلين اتبعوا من لا يسألكم أجرًا »[٦٢] . وليس يخفى أن هذا الخطاب فى الفعلين « اتبعوا » هو من حكاية كلام حبيب النجار ، فيكون قوله بعد ذلك وما لى لا أعبد الذى فطرنى « خروجًا على مقتضى ظاهر ما سبقه ، للانتقال فيه من الخطاب

إلى التكلم تعريضًا بالمخاطبين إشارة إلى أنه لا يريد لهم إلا ما يريد لنفسه وأن ما يلزمهم فى ترك العبادة يلزمه فى جملتهم ، على تقدير تركه لها ، ويؤكد العلامة الدسوقى أن ذلك التعريض هو نكتة هذا الالتفات وأنَّ التعريض لا ينافى الالتفات قائلا : « فالفائدة المختصة بموقع هذا الالتفات التعرض والإعلام بأن المراد المخاطبون من أول الكلام ، ثم إن كون الكلام من باب التعريض بالمخاطبين لا ينافى الالتفات إذ لا يشترط فيه التعبير بالمطابقة ، بل يصح باللزوم أيضًا كما فى التعريض .

والتعريض عند المصنف(٦٣) والشارح(٦٤) إما مجاز أو كناية وههنا مجاز ، لامتناع إرادة الموضوع له ، فيكون اللفظ مستعملًا فى غير ما وضع له ، فيكون المعبر عنه فى الأسلوبين واحدًا »(٦٥) .

ثم يعرض شيخنا ضياء الدين نموذجًا آخر لهذا النوع من الالتفات من التكلم إلى الخطاب - على ما ذهب إليه فى الآية الكريمة التى عرضها - ويبين سره البلاغى ذلك كله إذ يقول : « وعلى هذا الأسلوب يجرى الحكم فى الرجوع من خطاب النفس إلى خطاب الواحد، كقوله تعالى : ﴿ حم * والكتاب المبين * إنا أنزلناه فى ليلة مباركة إنا كنا منذرين * فيها يفرق كل أمر حكيم * أمرًا من عندنا إنا كنا مرسلين * رحمة من ربك إنه هو السميع العليم ﴾(٦٦) .

والفائدة هاهنا فى الرجوع من خطاب النفس إلى خطاب الواحد تخصيص النبى - ﷺ - بالذكر ، والإشارة بأن إنزال الكتاب إنما هواليه ، وإن لم يكن ذلك صريحًا ، لكن مفهوم الكلام يدل عليه »(٦٧) .

كلامه صريح فى أن موطن الالتفات هو كاف الخطاب فى « من ربك » وقد ذكر بلاغة هذا الالتفات وعدها تخصيص النبى - ﷺ - بالذكر ، ولا نعلمه هنا قد نقل عن أحد ، لكنا نراه قد خالف ما هو معروف من نهج أسلوب الالتفات الذى يقوم على كون المنتقل عنه والمنتقل إليه واحدًا(٦٨) ، إذ الضمير فى « أنزلناه » وفى « كنا » بتلك النون التى تسمى « نون العظمة » هو للمولى - جلا وعلا ، بينما هو فى « ربك » كاف الخطاب ... خوطب بها النبى - ﷺ -.. فلا وحدة بين الضميرين .. لا مطابقة ولا - لزومًا .

ولم يتوقف متأملًا عند العدول من ضمير المتكلم إلى الاسم الظاهر فى « ربك » الذى هو موضع الانتقال ، ومناط البحث ، وفى تقديرى أن هذا الانتقال وسيلة للتوصل إلى خطابه - ﷺ -. وهذا العدول هنا - على هذا النحو - عده جار الله الزمخشرى « وضعا للظاهر موضع الضمير » إيذانا بأن الربوبية تقتضى الرحمة على المربوبين »(٦٩) .

وقد تبع الزمخشرى فيما قال هنا كثير ممن جاءوا بعده كأبى السعود (٧٠) والألوسى(٧١) قديمًا ، والشيخ الطاهر بن عاشور(٧٢) حديثًا بيد أن السمين عد هذا العدول التفاتًا(٧٣) .

وكلا الرأيين صواب ، فهو وضع للظاهر موضع المضمر كما هو التفات من المتكلم إلى الغيبة « لأن ضمير الغائب والظاهر .. كلاهما على أسلوب الغيبة (٧٤) .

وكلا الأمرين عدول عما يقتضيه ظاهر الحال ، وقد كان العلامة برهان الدين البقاعى ممسكًا بالعصا من الوسط ، فى تعبيره عن سر التعبير بلفظ « ربك » فى هذا الموضع حيث قال « وبين -

سبحانه- حال الرسالات بقوله « رحمة » وعدل لأجل ما اقتضاه التعبير بالرحمة ، عما كان من أسلوب التكلم بالعظمة من قوله « منا » إلى قوله « من ربك » . أى المحسن إليك بإرسالك وإرسال كل نبى مضى من قبلك ، فإن رسالاتهم كانت لبث الأنوار فى العباد ، وتمهيد الشرائع فى العباد ، حتى استنارت القلوب واطمأنت النفوس بما صارت تعهد من شرع الشرائع ، وتوطئة الأديان ، فتسهلت طرق الرب لتعميم رسالتك ، حتى ملأت أنوار الآفاق ، فكنت نتيجة كل من تقدمك من الرفاق[٧٥] .

ومن الواضح بعد ذلك أن سر هذا الالتفات التناسق التعبيرى مع لفظ الرحمة ولا سيما أنها رحمة خلع عليها التفخيم »[٧٦] من خلال ما هى عليه من تنكير وأسهم فى مزيد فخامتها وصفها بأنها من ربك مع ما تشعر به كلمة « ربّ » من إحسان ، فتتعانق بذلك معان مؤتلفة فى تناغم يبث نسمات الرفق بالمربوبين ، وليس يخفى أيضًا أن إضافة لفظ « رب » إلى ضمير خطاب الرسول - ﷺ - تشريف له - ﷺ - كما أنه يسهم أيضًا فى سعة فيض هذه الرحمة لتعلقها بأشرف الخلق وأكرمهم على ربه .

ومما يثير عجب النفس أن بعض المفسرين[٧٧] الذين ذكروا العدول عن الضمير هنا إلى لفظ الربوبية باسم « وضع الظاهر موضع الضمير » قد صرحوا فيما هو نظيره تمامًا بأنه التفات »[٧٨] وذلك فى قوله تعالى : ﴿ إنا أعطيناك الكوثر فصل لربك ﴾ ، إذ العدول فى سورة الكوثر هو من ضمير المتكلم بنون العظمة « نا » إلى الاسم الظاهر « لربك » والبلاغيون فى عرضهم لأنواع الالتفات والاستشهاد لها مثلوا الالتفات من التكلم إلى الغيبة[٧٩] بقوله تعالى : ﴿ إنا أعطيناك الكوثر فصل لربك ...﴾ ولذا فإنى لا أدرى سر إيثار تسمية ذلك العدول فى آية الدخان وضعًا للظاهر موضع

المضمر ، مع أنه لا يختلف فى شئ عما فى سورة الكوثر ثم إنه بالمقاييس البلاغية عدول عن مقتضى الظاهر ، يقوم على تحول فى حركة الضمائر التى هى صميم الالتفات ، بيد أن المنتقل إليه اسم ظاهر والبلاغيون يعدونه كأسلوب الغائب .

ولا يخفى أن العدول فى مثل هذه الحالة إلى الاسم الظاهر .. منظور فيه إلى دلالات ذلك الاسم مع مراعاة ارتباطه بالسياق الذى يحيط به ، ولذا فإنى أميل إلى اعتبار هذا النوع من الالتفات نوعًا خاصًا ينبغى علينا أن نميزه دائمًا حيث وجد ، بالتنبيه على طبيعته ، وألا يكتفى فيه بمجرد القول ، بأنه التفات ، بل ينص صراحة على أنه التفات وضع فيه الظاهر موضع المضمر ، لتتطلع النفس ويجد العقل فى البحث عن أسرار العدول إلى هذا الاسم الظاهر .

ومن صور الالتفات التى أعقب بعضها بعضًا ، من غيبة إلى تكلم إلى خطاب ، وهو ما يسميه ابن الأثير من خطاب الغيبة إلى خطاب النفس ، ثم إلى خطاب الغير هذه الأبيات التى ساقها لأبى تمام حيث يقول(٨٠) :

وقد ورد فى فصيح الشعر من ذلك كقول أبى تمام(٨١) .

وركب يساقون الركاب زجاجة
من السير لم تقصد لها كف قاطب(٨٢)
فقد أكلوا منها الغوارب بالسرى
وصارت لهم ، أشباحهم كالغوارب(٨٣)
يصرف مسراها جذيل مشارق
إذا آبه هم .. عذيق مغارب(٨٤)

يرى بالكعاب الرود طلعة ثائر
وبالعرمس الوجناء غرة آئب(٨٥)
كأن بها ضغنا على كل جانب
من الأرض أو شوقا إلى كل جانب
إذا العيس لاقت بى أبا دلف فقد
تقطع ما بينى وبين النوائب(٨٦)
هنالك تلقى الجود .. من حيث قطعت
تمائمه والمجد مرخى الذوائب(٨٧)

ويبين ابن الأثير ما حدث فى هذه الأبيات من تصرف فى المعنى إذ يقول : « ألا ترى أنه قال فى الأول « يصرف مسراها » مخاطبة للغائب ، ثم قال بعد ذلك « إذا العيس لاقت بى » مخاطبًا نفسه ؟ وفى هذا من الفائدة أنه لما صار إلى مشافهة الممدوح والتصريح باسمه خاطب عند ذلك نفسه ، مبشرًا لها بالبعد عن المكروه ، والقرب من المحبوب ، ثم جاء بالبيت الذى يليه معدولًا به عن خطاب نفسه إلى خطاب غيره ، وهو أيضًا خطاب لحاضر فقال « هنالك تلقى الجود » والفائدة بذلك أنه يخبر غيره بما شاهده ، كأنه يصف له جود الممدوح ، وما لاقاه منه ، إشادة بذكره ، وتنويهًا باسمه ، وحملا لغيره على قصده .

وفى صفته جود الممدوح بتلك الصفة الغريبة البليغة ، وهى قوله : « حيث قطعت تمائمه » ما يقتضى له الرجوع إلى خطاب الحاضر ، والمراد بذلك أن محل الممدوح هو مألف الجود ومنشؤه ، ووطنه » .

وقد يراد به معنى آخر ، وهو أن هذا الجود قد أمن عليه الآفات العارضة من المن والمطل والاعتذار ، وغير ذلك ، إذ التمائم لا تقطع إلا عمن أمنت عليه المخاوف انتهى كلامه » .

والذى يبدو على الشاعر فى هذه الأبيات حرصه على تصوير أثر لقاء ممدوحه ، وقد مهد لهذا الأثر ببيان حاله فى أثناء مسيره إليه ، وما كان عليه من نحول وضعف وحب للترحال والانتقال فذكر أنه سار فى ركب سقى ركابه راح المسير ، وكانت هذه الراح خالصة لم يمزجها مازج بماء ، وقد أضنى السرى إبله حتى أكل غواربها وصارت شخوص الركب كأنها غوارب لهذه الإبل ، ويقود هذه الإبل خبير أسفار تعرفه البلدان - وهو يعنى نفسه - ويبدأ من هنا فى تصريفه لمعناه ، وكأنه ذلك العود المنصوب لاحتكاك الإبل الجربى ، كما أنه لطول المسير يبدو نحيفًا كهذا العذيق من النخيل - نحالة ودقة .

ولشدة حبه للأسفار وطلبه للمعالى .. يتجهم إذا رأى كعابا لينة تلك التى من شأنها أن تثبط عن أى سعى ، لكنه يرى فيها طالبًا للثأر ، بينما يأنس برؤية الناقة الشديدة الصلبة التى تغذ السير فى كل جهة من الأرض .

هذه حال ذلك القائد لهذا الركب ، عشق للترحل والانتقال وسعى لا يهدأ ، وأنس بالرواحل القوية الصلبة ، لكنه حين يحل بأرض الممدوح يصبح إنسانًا آخر ، حيث تهدأ نفسه ، وتقر بلابله ، وتنأى عنه النوائب ، لما ينعم به فى رحابه من جود .. سالم من الأذى والمن ، والمطل والاعتذار .

هكذا تدرج الشاعر فى معناه حتى ارتقى به - على هذا النحو - فإذا هو فى ساحة الممدوح يبعث من غيبة إلى حضور ، وعبر عن ذلك بتصرفه فى معناه من غيبة فى قوله :

يصرف مسراها جذيل مشارق إذا آبه هم عذيق مغارب

إلى تكلم فى قوله :

إذا العيس لاقت بى أبا دلف فقد
تقطع ما بينى وبين النوائب

ثم إلى خطاب آخر لنفسه فى قوله :

هنالك تلقى الجود من حيث قطعت
تمائمه ، والمجد مرخى الذوائب

وقد جعل الجود خالصًا سالمًا .. ينعم من حظى به باطمئنانه عليه ، ولهذا قطعت تمائمه كما أن المجد قد غمر الساحة إذ هو مرخى الذوائب .

وكانت التفاتات الشاعر فى تلك المواطن التي تحولت الحال فيها على أثر لقاء الممدوح . ولقد كان شيخنا ابن الأثير فيما وقف عنده من التفات فى هذه الأبيات ، وبيان بلاغتها . معبرًا عن حس شعرى ذواق ، ينبغى علينا أن نقدره له .

ومن صور الالتفات : الانتقال من خطاب الغائب إلى خطاب الحاضر (أى من الغيبة إلى الخطاب) أبيات أخرى ساقها ابن الأثير للمتنبى يهنئ فيها ابن العميد بالربيع المسمى عند الفرس « النوروز »فيوردها قائلًا :

« وعلى هذا النهج ورد قول أبى الطيب المتنبى فى قصيد يمدح به ابن العميد فى النوروز(٨٨) ، ومن عادة الفرس - فى ذلك اليوم - حمل الهدايا إلى ملوكهم .

كثر الفكر .. كيف نهدى كما أهـ
ـدت إلى ربها المليك عباده ؟
والذى عندنا من المال والخيـ ـل فمنه هباته .. وقياده

فبعثنا بأربعين مهارًا كل مهر ميدانه إنشاده
عدد عشته يرى الجسم فيه أربا لا يراه فيما يزاده
فارتبطها فإن قلبا نماها مربط تسبق الجياد جياده

ويعلق ابن الأثير على هذه الأبيات قائلًا :

« وهذا من إحسان أبى الطيب المعروف ، وهو رجوع عن خطاب الغائب إلى خطاب الحاضر واحتج أبو الطيب عن تخصيص أبياته بالأربعين دون غيرها من العدد بحجة غريبة ، وهى أنه جعلها كعدد السنين التى يرى الإنسان فيها من القوة والشباب وقضاء الأوطار ، ما لا يراه فى الزيادة عليها ، فاعتذر بألطف اعتذار ، فى أنه لم يزد القصيد على هذه العدة ، وهذا حسن غريب »(٨٩) .

لم يزد دور ابن الأثير هنا على أن بين نوع الالتفات ولم يتعرض لقيمته البلاغية ، وإذا وقفنا على المعانى التى يبثها الشاعر ممدوحه أمكن لنا الوقوف على بلاغة ذلك الالتفات ذلك أن هذه الأبيات الخمسة . جاءت خاتمة لقصيدة من أربعين بيتًا مدحًا لابن العميد ، وتهنئة له بعيد النيروز ، أى الربيع وقد استهلها الشاعر قائلًا :

جاء نيروزنا وأنت مراده وورت بالذى أراد زناده

وفى هذه الخاتمة يعرب الشاعر عن حيرته فى إختياره ما يهديه إلى مليكه تعبيرًا له عن مكانته العالية ، كما يهدى العباد إلى ربهم ، وقد استبدت به الحيرة ، إذ كل ما عنده من مال وخيل هو من عطايا ممدوحه .. فاهتدى أخيرًا إلى تلك التهنئة الشعرية ، التى يمثل كل بيت منها مهرًا فتيًا ، بيد أن مضمار هذه المهار الشعرية إنشاده بحضرة ابن العميد ، ولم تكن القصيدة بهذا العدد ضنًا من الشاعر ، أو عجزًا من قريحته الشعرية لكنه آثر أن تكون ممثلة لذلك

العدد من سنى العمر التى هى بلوغ الغاية من القوة والفتاء وبعدها تعود الحياة بصاحبها إلى النقص والتهاوى .. اهتم الشاعر بالدعاء لممدوحه أن يزيد الله عمره سنين تعدل هذا العدد الذى جاءت عليه القصيدة .. ويرجوه أن يرتبطها ، إذ هى قد صدرت عن قلب كان مربطًا لجياد الشعر التى تسبق جياد الخيل .

وقد تصرف الشاعر فى معناه حين خاطب ممدوحه داعيًا له بطول العمر ، فتحول من خطاب الغيبة إلى خطاب الحاضر حيث قال :

عـدد عـشـتـه يـرى الجسـم فـيـه
أربًـا لا يـراه فـيـمـا يـزاده

وإخال أنه أراد بهذا التحول أن يجمع إلى متعته بالدعاء لممدوحه .. متعة خطابه ولذة مواجهته بالدعاء له ... متعة خطابه ولذة مواجهته بما من شأنه أن يسعده كما يسعد المادح أيضًا ، لأنه ينعم بفيض هذه الحياة .. كلما امتد بها الزمن .

وإذا كانت صورة الالتفات التى سبقت من الغيبة إلى الخطاب فإن مقابلها الانتقال من الخطاب إلى الغيبة حيث يقتضى المعنى ذلك الانتقال ، وهذا ما أورده ابن الأثير إذ يقول(٩٠) :

« وأما الرجوع من الخطاب إلى الغيبة فكقوله تعالى : ﴿ هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أُحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ﴾(٩١) .

فإنه إنما صرف الكلام هاهنا من الخطاب إلى الغيبة لفائدة ، وهى أنه ذكر لغيرهم حالهم ، ليعجبهم منها كالمخبر لهم ، ويستدعى منهم الإِنكار عليهم ، ولو قال : حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بكم بريح طيبة وفرحتم بها ، وساق الخطاب معهم إلى آخر الآية لذهبت تلك الفائدة التى أنتجها خطاب الغيبة ، وليس ذلك بخاف عن نقده الكلام .

الآية الكريمة التى ساقها ابن الأثير من شواهد الالتفات التى عنى بها الذين بحثوا فيه منذ التنبيه إلى أسلوبه فى وقت مبكر، حيث تناولها بالدرس أبو عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢٠٨هـ) وابن قتيبة (٢٧٦هـ) وابن المعتز (٢٩٦هـ) وإن اختلف الاسم الذى عبر به عن الالتفات فى الآية لدى كل منهم - وقد حددوا موطنه لكن أحدًا منهم لم يذكر قيمته البلاغية ... إلى أن ذكرها جار الله الزمخشرى حيث قال :

« فإن قلت : ما فائدة صرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة » ؟

قلت : المبالغة كأنه يذكر لغيرهم حالهم ، ليعجبهم منها ويستدعى منهم الإِنكار والتقبيح »[٩٢] .

هذا ما قاله جار الله فى الالتفات فى الآية الكريمة وهو أيضًا ما ردده ابن الأثير نقلًا عنه ، دون تغيير يذكر ، وكالعهد به فإنه لا ينسب شيئًا إلى من نقل عنه ، كما لم يضف أدنى إضافة إلى بلاغة الالتفات هنا ... بيد أنه حافل بالقيم ، وقد ذكر برهان الدين البقاعى بعض هذه القيم منسوبًا إلى أبى حيان ، وبعضًا آخر من فهمه ، مع الابتناء على ما قاله جار الله ، فقد قال فى تفسيره الموسوم بـ « نظم الدر فى تناسب الآيات والسور »[٩٣] .

« وجاء الخطاب أولًا فى « يسيركم ليعم المؤمنين ، لأن التسيير يصلح للامتنان ، ثم التفت إلى الغيبة عند صدور ما لا يليق بهم – نبه على ذلك أبو حيّان(٩٤) وأحسن منه أن يقال : إنه – سبحانه – أقبل عليهم تنبيهًا على أنه جعلهم – بما هيأ فيهم من القوى – أهلا لخطابه ، ثم أعرض عنهم إشارة إلى أنهم استحقوا الإعراض لإعراضهم اغترارًا بما أتاحهم من الريح الطيبة فى محل يجب فيه الإقبال عليه ، والغنى عن كل ما سواه ، لعظم الخطر ، وشدة الأمر ، وكأنه يذكر لغيرهم من حالهم ، ما يعجبه منه لينكر عليهم ، ويقبح حالهم » .

ومن الآية التى سبقت شاهدًا للالتفات من الخطاب إلى الغيبة ينتقل ابن الأثيرإلى آية أخرى مثالًا لهذا النوع من الالتفات أيضًا إذ يقول (٩٥) : « ومما ينخرط فى هذا السلك قوله تعالى : ﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون وتقطعوا أمرهم بينهم كل إلينا راجعون ﴾ (٩٦) .

ويعقب بذكر فائدة الالتفات فى الآية قائلًا : « الأصل فى « تقطعوا » تقطعتم عطفًا على الأول ، إلا أنه صرف الكلام من الخطاب إلى الغيبة على طريقة الالتفات كأنه ينعى عليهم ما أفسدوه إلى قوم آخرين ، ويقبح عندهم ما فعلوه ، ويقول : ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء فى دين الله تعالى ، فجعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعًا ؟ وذلك تمثيل لاختلافهم فيه ، وتباينهم ، ثم توعدهم بعد بأن هؤلاء الفرق المختلفة إليه يرجعون ، فهو مجازيهم على ما فعلوا » .

وهو هنا – كما هو شأنه في أغلب ما قاله فى هذا الباب قد نقل عن جار الله الزمخشرى نقلًا ، دون ما إشارة إليه ، وها هى

ذى عبارة الزمخشرى قد حملت من كشافه إلى صفحات « المثل السائر » شاهد عدوان على صاحبها .

« ... والأصل تقطعتم ، إلا أن الكلام حرف[٩٧] إلى الغيبة على طريقة الالتفات كأنه ينعى عليهم ما أفسدوه إلى آخرين ، ويقبح عندهم فعلهم ، ويقول لهم : ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء فى دين الله ؟ والمعنى : جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعًا ، كما يتوزع الجماعة الشئ ويتقسموه فيطير لهذا نصيب ولذاك نصيب تمثيلًا لاختلافهم فيه وصيرورتهم فرقًا وأحزابًا شتى ، ثم توعدهم بأن هؤلاء الفرق المختلفة إليه يرجعون فهو محاسبهم ومجازيهم »[٩٨] .

على أن الالتفات فى الآية الكريمة هنا يشعر أيضًا بأنهم حين أعرضوا لم يكونوا أهلًا للخطاب من المولى جل وعلا ، بل هم أهل للبعد عن ساحته ، وحلول غضبه عليهم ، وقد عبر عن هذه المعانى فى ذلك الالتفات الإمام البقاعى حيث قال[٩٩] : « ... ولما كان من المعلوم أنهم لم يفعلوا (أى عبادة الإله الواحد) إذ أمرهم بذلك فى قوله ﴿ وأنا ربكم فاعبدون ﴾ أعرض إلى أسلوب الغيبة إيذانًا بالغضب ، فكان التقدير فى جواب من كأنه قال : ما فعلوا ؟

لم يطيعوا أمرى فى الاجتماع على ما جمعتهم عليه من عبادتى التى هى سبب لجلب كل خير ، ودفع كل ضر ، ولا اقتدوا فى ذلك بالكمل من عبادى ، فعطف عليه قوله « وتقطعوا أى مخالفة للأمر بالإجماع » .

فأضاف - رحمه الله - إعلام هذا الالتفات بغضب الله عليهم حين أعرضوا كما لحظ دلالة العطف بالواو من كونها دلت على

محذوف ، عطف عليه « تقطعوا » وكان هذا المحذوف جواب سؤال مقدر اقتضاه توجيه الأمر بعبادة الرب الإله الواحد .

ويوالى ابن الأثير عرض نماذج قرآنية لهذا النوع من الالتفات : من الخطاب إلى الغيبة ، فيسوق مثالاً ثالثًا له ، قائلاً[١٠٠] :

« ومما يجرى هذا المجرى قوله تعالى : ﴿ قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعًا الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت ، فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾[١٠١] .

فإنه إنما قال « فآمنوا بالله ورسوله » ولم يقل : فآمنوا بالله وبى » ، عطفًا على قوله « إنى رسول الله إليكم » لكى تجرى عليه الصفات التى أجريت عليه وليعلم أن الذى وجب الإيمان به والاتباع له هو هذا الشخص الموصوف بأنه النبى الأمى الذى يؤمن بالله وبكلماته كائنا من كان ، أنا وغيرى ، إظهارًا للنصفة ، وبعدًا من التعصب لنفسه فقرر أولا فى صدر الآية أنه رسول الله إلى الناس ، ثم أخرج كلامه من الخطاب إلى معرض الغيبة لغرضين :

الأول منهما : إجراء تلك الصفات عليه .

والثانى : الخروج من تهمة التعصب لنفسه .

وابن الأثير هنا أيضًا قد نقل عن جار الله الزمخشرى ، ولم ينسب إليه شيئًا ، ولم يضف إضافة ما إلى ما قاله وتلك عبارة الزمخشرى ، نضعها بإزاء ما ذكره ابن الأثير ليتأكد لدينا نقله عن جار الله – فقد قال – رحمه الله فى التحول « الذى جرى فى الآية الكريمة » .

« فإن قلت : هلا قيل فآمنوا بالله وبى بعد قوله « إنى رسول الله إليكم » .

قلت : عدل عن المضمر إلى الاسم الظاهر لتجرى عليه الصفات التى أجريت عليه ، ولما فى طريقة الالتفات من مزية البلاغة ، وليعلم أن الذى وجب الإيمان به واتباعه هو هذا الشخص المستقل بأنه النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته ، كائنًا من كان ، أنا أو غيرى ، إظهارًا للنصفة ، وتفاديًا من العصبية لنفسه »[١٠٢] .

وأشعر كلام الزمخشرى أن التحول هنا أو العدول عن مقتضى الظاهر هو ذلك النوع النادر من الالتفات الذى وضع فيه المظهر موضع المضمر ، حيث قال « عدل عن المضمر إلى الاسم الظاهر ...» كما قال : « ... ولما فى طريقة الالتفات من مزية البلاغة » .

وبيانه - رحمه الله - للقيم البلاغية فى هذا التحول جاء منصبًا على دلالات - التعبير بالاسم الظاهر الأمر الذى يؤكد لنا أن الالتفات حين يكون تحولا - على هذا النحو من ضمير إلى اسم ظاهر فالقصد حينئذ إلى دلالة الاسم الظاهر مرتبطة بالسياق الأمر الذى يجعلنا نميل إلى النص فى هذه الحال على خصوصية الالتفات وأنه التفات من الضمير إلى الاسم الظاهر لتتعلق النفس بالمعانى التى تنبعث من ذلك المظهر .

ولا يفوتنا هنا أيضًا أن نذكر دلالات أخرى للتعبير بالاسم الظاهر هنا ، فقد قال العلامة أبو السعود : « وإيراد نفسه - عليه الصلاة والسلام - بعنوان الرسالة ، على طريقة الالتفات إلى الغيبة ، للمبالغة فى إيجاب الامتثال بأمره ووصف الرسول بقوله « النبى

الأمى » لمدحه - عليه الصلاة والسلام بهما ، ولزيادة تقرير أمره ، وتحقيق أنه المكتوب فى الكتابين ..»(١٠٣) .

ولا يخفى أن الوصف الذى امتدح به عليه الصلاة والسلام وزاد به تقرير أمره وتحقق به المطابقة لما فى الكتابين من صفة ، كان التعبير بالاسم الظاهر هو السبيل إلى إجرائه على الرسول - ﷺ - فهذا المدح هو أيضًا من معطيات التعبير بالاسم الظاهر .

ويبقى لنا بعد ذلك توضيح لكلام شيخنا ضياء الدين ابن الأثير ، فى إيراده هذه الآية الكريمة فى الالتفات من الخطاب إلى الغيبة حيث ذكرها المثال الثالث لهذا النوع من الالتفات ، وقدم لها بقوله « ومما يجرى هذا المجرى » ثم علق عليها بعد أن ذكر ما فيها من التفات بقوله « فقرر أولًا فى صدر الآية أنه رسول الله إلى الناس ثم أخرج كلامه من الخطاب إلى معرض الغيبة، ولعل اطراد الخطاب للناس فى الآية فى بدايتها ونهايتها وفى وسطها أيضًا يخيل لمن يطالعها ويرى إيرادها هنا فى هذا النوع من الالتفات « من الخطاب إلى الغيبة » لعل ذلك كله يخيل لمن يطالعها أن ابن الأثير قد أوردها فى غير موضعها .. لكن لا يفوتنا أن ابن الأثير جعل الخطاب نوعين : خطاب النفس وعنى به التكلم ، وخطاب الغير وعنى به ما نعرفه من خطاب الآخرين بالضمائر التى تقررت للمخاطبة لدى النحاة .

وعلى ذلك فالخطاب الذى عدل عنه فى الآية هو خطاب الرسول - ﷺ - نفسه فى صدر الآية الكريمة ﴿ قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا ﴾ والذى عبر عنه بضمير المتكلم « الياء » فى ﴿ إنى رسول الله إليكم جميعا ﴾ .

وبهذه الآية الكريمة وما قاله ابن الأثير من توضيح لما فيها من الالتفات ... ينتهى كلامه فى القسم الأول من الالتفات - طبقًا لتقسيمه الذى قسمه إياه - وهذا القسم يختص بالتصرف فى الضمائر ، والانتقال فى التعبير بها من أسلوب إلى آخر .

وقد كان ما ذكره - من نماذج - وأمثلة صورًا لأضرب خمسة من هذا القسم وهى :

١- ٢ الانتقال من الغيبة إلى التكلم وعكسه .

٣- ٤ الانتقال من الغيبة إلى الخطاب وعكسه .

٥- الانتقال من التكلم إلى الخطاب .

وترك صورة هى السادسة من صور الالتفات وهى الانتقال من الخطاب إلى التكلم هذه الصورة تركها ولم يمثل لها .

وقد رأيناه فى بعض ما عرضه من أمثلة - تعوزه الدقة فى تحديد المنتقل إليه كالذى كان منه فى آية الدخان ﴿ إنا أنزلناه فى ليلة مباركة إنا كنا منذرين * فيها يفرق كل أمرٍ حكيم * أمرًا من عندنا * إنا كنا مرسلين * رحمة من ربك ﴾ . حيث عد المنتقل إليه كاف الخطاب فى ﴿ من ربك ﴾ والحق أن المنتقل إليه الاسم الظاهر المضاف إلى هذه الكاف وقد نبهنا إلى ذلك فى موضع مناقشتنا لما ارتآه فى الآية » .

ثم يوالى عرض الأقسام التى ذكرها للالتفات - على ما يراه هو - فيذكر التعبير عن الخبر : مضارعًا وماضيًا بلفظ الأمر ، والتعبير عن المستقبل بلفظ الماضى وعكسه والالتفات فى هذين القسمين هو توسع فى استعمال صيغة مكان أخرى من صيغ الأفعال وعدُّ هذا الالتفات لم يقل به - فيما نعلم - أحد قبل ابن الأثير . ونعرض

ما قاله فى كل من هذين القسمين لكى نصل إلى تأصيل ما قاله برده إلى مصادره ، ونبرز ما له من جهود فى تحليله لصيغ التعبير وبيان ما فيها من قيم بلاغية .. ونبدأ بالقسم الثانى حيث قال : « القسم الثانى فى الرجوع عن المستقبل إلى فعل الأمر ، وعن الفعل الماضى إلى فعل الأمر » .

وهذا القسم كالذى قبله فى أنه ليس الانتقال فيه من صيغة إلى صيغة طلبًا للتوسع فى أساليب الكلام فقط ، بل لأمر وراء ذلك ، وإنما يقصد إليه تعظيمًا لحال من أجرى عليه الفعل المستقبل ، وتفخيمًا لأمره ، وبالضد من ذلك فيمن أجرى عليه فعل الأمر .

فمما جاء منه قوله تعالى : ﴿ يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ، قال إنى أشهد الله واشهدوا أنى برئ مما تشركون ﴾(١٠٤) .

فإنه إنما قال : ﴿ أشهد الله واشهدوا ﴾ ولم يقل « وأشهدكم ليكون موازنًا له وبمعناه ، لأن إشهاد الله على البراءة من الشرك صحيح ثابت ، وأما إشهادهم فما هو إلا تهاون بهم ، ودلالة على قلة المبالاة بأمرهم ولذلك عدل به عن لفظ الأول لاختلاف ما بينهما ، وجئ به على لفظ الأمر ، كما يقول الرجل لمن يبس الثرى بينه وبينه « أشهد على أنى أحبك » تهكمًا به ، واستهانة بحاله »(١٠٥) .

موطن العدول هنا فى الفعل « اشهدوا » وهو أمر حيث عطف على « أشهد الله » وهو مضارع ، وما ذكره ابن الأثير فى تأكيده عليه السلام لبراءته من عبادة الأصنام وأسرار عطف « اشهدوا » على « أشهد الله » جاء كله نقلًا عن الزمخشرى دون نسبة إليه ،

فقد قال رحمه الله : « أكد براءته من آلهتهم وشركهم ووثقها بما جرت به عادة الناس من توثيقهم الأمر بشهادة الله وشهادة العباد ، فيقول الرجل للرجل : الله شهيد على أنى لا أفعل كذا ، ويقول لقومه : كونوا شهداء على أنى لا أفعله فإن قلت : هلا قيل إنى أشهد الله وأشهدكم ؟ قلت : لأن إشهاد الله على البراءة من الشرك صحيح ثابت فى معنى تثبيت التوحيد وشد معاقده ، وأما إشهادهم فما هو إلا تهاون بدينهم ودلالة على قلة المبالاة بهم فحسب ، فعدل به عن لفظ الأول لاختلاف ما بينهما ، وجئ به على لفظ الأمر بالشهادة كما يقول الرجل لمن يبس الثرى بينه وبينه : اشهد على أنى لا أحبك » تهكمًا به ، واستهانة بحاله(١٠٦) .

ففى التعبير بالأمر فى « واشهدوا » تهكم بهم واستهانة بحالهم ، بينما التعبير بالمضارع فى « أشهد الله » فيه دلالة كون إشهاد الله على البراءة من الشرك ثابتًا محققًا ، على أن فى صيغتى هذا الإشهاد ، أسرارًا أخرى ينبئ عنها التعبير فى كل منهما إذ فى الأول « أشهد الله » - مذكورًا بغير مفعول - إفادة عموم هذا الإشهاد ، وكأنه أراد أن يشهده على إبلاغهم والنصح لهم ، إلى جانب براءته من الشرك . كما أن فى التعبير بصيغة الخبر فى هذا الفعل إجلالًا لله تعالى وتوقيرًا (١٠٧) .

كما قيل أيضًا أن الأمر بإشهادهم أريد به « الحقيقة ، والغرض إقامة الحجة عليهم ، وعدل إلى صيغة الأمر للتمييز بين خطاب الله تعالى وخطابه لهم » (١٠٨) .

وإذا ربطنا الآية بسياقها بدا لنا كيف أن ما قاله هود عليه السلام كان إبطالًا لمزاعمهم فى صدع وتحدٍّ حيث قالوا له : « يا

هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ..» .

فأبطل ما زعموا من مس آلهتهم له بسوء بتأكيد براءته منها ، ثم تحداهم هم وأصنامهم بأن يجتمعوا جميعًا ويظاهر بعضهم بعضًا فى الكيد له وألا يمهلوه فى ذلك فكيدونى جميعًا ثم لا تنظرون .

ثم إن هذا الأسلوب « عطف الإنشاء على الخبر فيه كلام لأهل العلم نحاة وبلاغيين ، فقد ذكر ابن يعقوب المغربى أن هذا العطف عند أهل اللغة فيه الخلاف ومن منع فلا إشكال ...» ثم قال : الأقرب أن يقال : البيانيون على القول بامتناع الوصل الذى هو العطف فى كمال الانقطاع ، الذى هو كون إحدى الجملتين خبرًا ، والأخرى إنشاء(١٠٩) .

كما يذكر البهاء السبكى أيضًا فى هذا الموضوع كلامًا لا يختلف عما سبق لدى المغربى إذ يقول : واعلم أن الخبر والإنشاء الممتحضين لا يعطف أحدهما على الآخر فيجب الفصل بلاغة ، وأما لغة فاختلفوا فيه ، فالجمهور على أنه لا يجوز ... وجوزه الصفار وطائفة ، ونقل الشيخ أبو حيان عن سيبويه جواز نقل المختلفين بالاستفهام والخبر مثل : هذا زيد ومن عمرو(١١٠) ؟

بينما يذكر السيد الشريف الجرجانى أن الأمر يختلف باختلاف الجملة المعطوف عليها .. فإن كان المعطوف عليها لها محل من الإعراب وقصد تشريك الثانية لها فى حكم الإعراب عطفت عليها كالمفرد .. فقد جعلوا الجمل التى لها محل من الإعراب فى حكم المفردات ، وليست النسب بين أجزائها مقصودة بالذات ، فلا التفات إلى اختلاف تلك النسب بالخبرية والإنشائية ، خصوصًا فى

الجمل المحكية بعد القول ... بخلاف ما لا محل له من الإعراب ، فإن نسبها مقصودة بذواتها ، فيعتبر أحوالها العارضة »[١١١] .

وما قاله السيد الشريف الجرجانى جدير بالقبول والتقدير ، وهذا كلام ثقات المفسرين فى تخريجهم للعطف فى الآية الكريمة .. قال : إنى أشهد الله واشهدوا أنى برئ مما تشركون من دونه فكيدونى جميعًا » يعكس هذا الاختلاف ، فمما قالوه فيها « وعطف الإنشاء على الأخبار جائز عند بعض ، ومن لم يجوزه قدر قولًا ، أى وأقول اشهدوا ، ويحتمل أن يكون إشهاد الله تعالى إنشاء أيضًا - وإن كان فى صورة الخبر وحينئذ لا قيل ولا قال ، وجوز أن يكون إشهاده - عليه السلام لهم حقيقة إقامة للحجة عليهم ، وعدل عن الخبر فيه تمييزًا بين الخطابين ، فهو خبر فى المعنى كما هو المشهور فى الأول ، لكن الأولى الحمل على المجاز[١١٢] .

فهذه وجوه عدة نرى من خلالها كيف قدح التعبير القرآنى الفكر ، فراح يتلمس الوجوه لهذا العطف، وكلها صواب .

وقد ذهب بعض المعاصرين إلى أن « أشهد الله » أسلوب إنشاء بصورة الإخبار[١١٣] ، موافقًا بعض هذا الذى ذكر من وجوه فى تخريج العطف فى الآية وتعليل هذا عنده ... أن كل إنشاء لا يظهر أثره فى الخلق من شأنه أن يقع بصيغة الخبر ، لما فى الخبر من قصد إعلام السامع بما يضمره المتكلم ، ولذلك كان معنى صيغ العقود إنشاء بلفظ الخبر »[١١٤] .

ومهما قيل من وجوه فى تخريج العطف فى الآية ، فإنه يبقى سر بلاغى فى كون أحد المتعاطفين جاء مخالفًا للآخر ، وهذا ما ينبغى أن يتوقف عنده المتلقى وقد كان جار الله الزمخشرى فى

مقدمة من عنى ببيان السر البلاغى لهذا الاختلاف ، ثم نقله عنه ابن الأثير ، دون ما إشارة إلى نسبة ما نقله إليه .

كما يذكر ابن الأثير الصورة الأخرى لهذا الرجوع ، وهى عن الفعل الماضى إلى فعل الأمر حيث يقول :

« وكذلك يرجع عن الفعل الماضى إلى فعل الأمر ، إلا أنه ليس كالأول ، بل إنما يفعل ذلك توكيدًا لما جرى عليه فعل الأمر ، لمكان العناية بتحقيقه ، كقوله تعالى : ﴿ قل أمر ربى بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين ﴾ .

وكان تقدير الكلام : أمر ربى بالقسط وبإقامة وجوهكم عند كل مسجد ، فعدل عن ذلك إلى فعل الأمر للعناية بتوكيده فى نفوسهم ، فإن الصلاة من أوكد فرائض الله تعالى على عباده ثم اتبعها بالإخلاص الذى هو عمل القلب ، إذ عمل الجوارح لا يصح إلا - بإخلاص النية ، ولهذا قال النبى - ﷺ -: « الأعمال بالنيات »(١١٥) .

يبدو واضحًا فى كلام ابن الأثير إدراكه لمرامى تصريف الكلام ، وأن التحول إلى فعل الأمر فى ... وأقيموا وجوهكم ، قصد به العناية بتوكيد هذا الفعل فى نفوسهم لكونه يتناول فريضة الصلاة ، وهى أهم فرائض الإسلام كما جاء فعل الأمر « وادعوه مخلصين له الدين » أيضًا على صيغة من الأمر اعتناء بالإخلاص الذى هو روح العبادة .

ثم يعقب بما يؤكد أن هذا التصريف للمعانى لا يكون إلا لنوع خصوصية اقتضته ويذكر أنه لا يكون إلا ممن هو على علم برموز الفصاحة والبلاغة ، إذ يقول « واعلم أيها المتوشح لمعرفة علم البيان أن العدول عن صيغة من الألفاظ إلى صيغة أخرى لا يكون إلا

لنوع خصوصية ، اقتضت ذلك ، وهو لا يتوخاه فى كلامه إلا العارف برموز الفصاحة والبلاغة ، الذى اطلع على أسرارها ، وفتش عن دقائقها ، ولا تجد ذلك فى كل كلام ، فإنه من أشكل ضروب علم البيان ، وأدقها فهمًا وأعمقها طريقًا (١١٦) .

وإذ نحمد له ذلك فإننا نضيف إليه ما قاله آخرون من أولئك الذين عنوا ببيان نسق التعبير القرآنى وما يكون فيه من لفتات تنبه المتلقى وتخرجه من سكون الإلف ، إلى صحوة العدول ، والخروج على ما يقتضيه الظاهر ، وهم فى جهدهم فى هذا الصدد يحرصون على التناسق والتناغم بين المتعاطفين فتتعدد الآراء فى بيان ما عطف عليه الأمر « أقيموا وجوهكم » : فهو « معطوف على أمر مقدر فهم مما سبق ، أى فأقسطوا اتباعًا لما أمر به ، أو على القسط إذ هو مصدر ينحل إلى أن أقسطوا » (١١٧) ، والمصدر ينحل إلى الماضى والمضارع والأمر مع أن ، ويذكر الألوسى - رحمه الله - نقلًا عن الجرجانى(١١٨) أنه عطف على الخبر السابق المقول لقل ، وهو إنشاء معنى ، ثم يضيف وجوهًا أخرى فيقول : أو أن الكلام من باب الحكاية ، وجوز أن يكون هناك « قل » مقدرًا معطوفًا على نظيره ، وأقيموا مقول له ، وأن يكون معطوفًا على محذوف تقديره : قل أقبلوا وأقيموا(١١٩) أما سر هذا العدول فمما يكشف عنه أن نربط التعبير هنا بسياقه الذى سبقه فقد سبقت الآية الكريمة بقوله تعالى : ﴿ يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسًا يوارى سوآتكم وريشًا ولباس التقوى ذلك خير ، ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ، إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون . وإذا فعلوا فاحشة قالوا

وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها ، قل إن الله لا يأمر بالفحشاء ، أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾[١٢٠] .

فكان فى هذا العدول مواجهة المفترين على الله وعلى دينه بما يدحض مزاعمهم إذ أنه بعد أن أنكر عليهم دعواهم فى أن الله لا يأمر بالفحشاء ، « بين لهم أن أمر الله يجرى فى اتجاه مضاد ، لقد أمر الله بالعدل والاعتدال فى الأمور كلها ، لا بالفحش والتجاوز ، وأمر بالاستقامة على منهج الله فى العبادة والشعائر ، والاستمداد مما جاء فى كتابه على رسوله - ﷺ - ولم يجعل المسألة فوضى ، يقول فيها كل إنسان ما يهواه ، ثم يزعم أنه دين الله ، وأمر بأن تكون الدينوية خالصة له ، والعبودية كاملة ، فلا يدين أحد لأحد لذاته ، ولا يخضع أحد لأمر أحد لذاته ، هذا ما أمر الله به ، وهو يضاد ما هم عليه .. يضاد اتباعهم لآبائهم ، وللشرائع التى وضعها لهم عباد مثلهم ، مع أن دعواهم أن الله أمرهم بها ، ويضاد التعرى والتكشف وقد امتن الله على بنى آدم ، بأنه أنزل عليهم لباسًا يوارى سوآتهم وريشا يتجملون به كذلك .. ويضاد هذا الشرك الذى يزاولونه ، بازدواج مصادر التشريع لحياتهم ولعبادتهم »[١٢١] .

وفى هذا الأمر أيضًا تعظيم المعبود ، ومكان العبادة [١٢٢] »

وعود إلى شيخنا ضياء الدين بن الأثير حيث يعرض القسم الثالث من أقسام الالتفات - على ما يراه هو فيقول :

« القسم الثالث فى الإِخبار عن الفعل الماضى بالمستقبل وعن المستقبل بالماضى :

فالأول : الإِخبار بالفعل المستقبل عن الماضى :

اعلم أن الفعل المستقبل إذا أتى به فى حالة الإِخبار عن وجود الفعل كان ذلك أبلغ من الإِخبار بالفعل الماضى ، وذلك لأن الفعل

المستقبل يوضح الحال التى يقع فيها ، ويستحضر تلك الصورة ، حتى كأن السامع يشاهدها ، وليس كذلك الفعل الماضى ، وربما أدخل فى هذا الموضع ما ليس منه جهلًا بمكانه ، فإنه ليس كل فعل مستقبل يعطف على ماض بجار هذا المجرى .

وسأبين ذلك فأقول : عطف المستقبل على الماضى ينقسم إلى ضربين :

أحدهما بلاغى : وهو إخبار عن ماض بمستقبل ، وهو الذى أنا بصدد ذكره فى كتابى هذا الذى هو موضع لتفصيل ضروب الفصاحة والبلاغة والآخر غير بلاغى ، وليس إخبارًا بمستقبل عن ماض وإنما هو مستقبل دل على معنى مستقبل غير ماض ، ويراد به أن ذلك الفعل مستمر الوجود لم يمض » .

يلمس ابن الأثير هنا مزية التعبير بالفعل المضارع ، ذلك أن الفعل المضارع يضع أمام المتلقى صورة حاضرة للفعل وهو يقع ، كأنه يشاهده أمام ناظريه ، وفى هذا فضل بيان للحدث ، وليس كذلك الفعل الماضى ، وقد عبر ابن الأثير عن ذلك بقوله ..... الإخبار بالفعل الماضى » . ومراده بالأبلغية هنا أن المضارع أكثر مبالغة فى تصويره للحدث ، لا أنه أكثر بلاغة ، إذ البلاغة تتعلق بالمطابقة لمقتضى الحال هذا والانتقال من الماضى إلى المضارع ليس يصح فى كل حال ، ومن ثم قسم ابن الأثير عطف المضارع على الماضى إلى ضربين .

الضرب الأول يكون مقتضى الظاهر فيه التعبير بصيغة الماضى ، بيد أنه يعدل عنه إلى صيغة المضارع وذلك لدواع بلاغية ، ويعرض ابن الأثير نماذج لهذا النوع قائلًا[١٢٣] : فالضرب الأول كقوله

تعالى : ﴿ والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابًا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور ﴾(١٢٤) .

فإنه إنما قال – فتثير « مستقبلًا ، وما قبله وما بعده ماض لذلك المعنى الذى أشرنا إليه ، وهو حكاية الحال التى يقع فيها إثارة الريح السحاب ، واستحضار تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الباهرة وهكذا يفعل بكل فعل فيه نوع تمييز وخصوصية كحال تستغرب ، أو تهم ، المخاطب ، أو غير ذلك » .

وهذا الذى قاله ابن الأثير هو نفس ما قاله جار الله الزمخشرى فى بلاغة العدول عن الماضى إلى المضارع فى الفعل « فتثير » فقد قال – رحمه الله :

« فإن قلت : لم جاء فتثير على المضارعة دون ما قبله وما بعده ؟

قلت : ليحكى الحال التى يقع فيها إثارة الرياح السحاب وتستحضر تلك الصورة البديعية الدالة على القدرة الربانية ، وهكذا يفعلون بفعل فيه نوع تمييز وخصوصية بحال تستغرب أو تهم المخاطب »(١٢٥) .

وإذا كان هذا العدول استحضارًا لتلك الصورة البديعية الدالة على القدرة الباهرة فإن ثمة غاية من وراء استحضارها ، وهى أن يكون ذلك سبيلًا إلى ترسيخ الإِيمان بالبعث فى النفوس ، بدليل ما جاء فى فاصلة الآية « كذلك النشور » ولذا فإن الآية الكريمة حفلت بما من شأنه تعميق هذا الإِيمان ، من التعبير بلفظ الجلالة اسمًا ظاهرًا ، بينما المقام للضمير لسبق ذكر لفظ الجلالة فيما سبق هذه الآية مباشرة « والله عليم بما يصنعون » . إلى جانب كون الخبر ىسمًا موصولًا وهو فى قوة المعرف بأل فأفاد قصر ما جاء فى الصلة عليه سبحانه ، ثم هذا العدول فى « فسقناه وأحيينا » على

سبيل الالتفات من الغيبة إلى التكلم بنون العظمة ، وقد نبه الزمخشرى إلى هذا الالتفات(١٢٦) ، وأخيرًا تشبيه البعث فى حدوثه بهذا الذى تم من إحياء السحاب للأرض الميتة ، فتضافرت كل الوسائل لتحقيق غاية واحدة هى الاستدلال على إحياء الموتى قصدًا إلى ترسيخ عقيدة البعث فى النفوس .. بعرض تلك المظاهر للقدرة الإلهية .

وبالطبع نقل ابن الأثير عن الزمخشرى ما قاله دون ما إشارة إليه .

ويضيف ابن الأثير نموذجًا آخر لعطف المضارع على الماضى استحضارًا للصورة وما فيها من دواع للعجب فيقول « وعلى هذا الأسلوب ما ورد من حديث الزبير بن العوام - رضى الله عنه - فى غزوة بدر ، فإنه قال : لقيت عبيدة بن سعيد بن العاص وهو على فرس ، وعليه لأمة(١٢٧) كاملة لا يرى منها إلا عيناه ، وهو يقول : أنا أبو ذات الكئوس وفى يدى عنزة(١٢٨) فأطعن فى عينه ، فوقع وأطأ برجلى على خده ، حتى خرجت العنزة متعقفة(١٢٩) .

فقوله : « فأطعن بها فى عينه ، « وأطأ برجلى » معدول به عن لفظ الماضى إلى المستقبل ، ليمثل للسامع الصورة التى فعل فيها ما فعل ، من الإقدام والجرأة على قتل ذلك الفارس المستلئم .

ألا ترى أنه قال أولا : لقيت عبيدة « بلفظ الماضى » ثم قال بعد ذلك « فأطعن بها فى عينه » ولو عطف كلامه على أوله لقال : فطعنت بها فى عينه ؟

إن إصابة فارس مستلئم - مجرد إصابته - دليل شجاعة وفروسية ، وأمر فيه ما يستحق العجب فكيف إذا كان فارس آخر تمكن منه ، وسدد عنزته فى عينه ، وإمعانًا فى إهانته والتمكن منه

وطئ طاعنه خده برجله ، وراحت العنزة تتحرك داخل عينه بقوة ممن سددها ، إنها صورة تستحق أن تمثل بكل ما فيها من مظاهر بطش الزبير بفارسه المستلئم وإهانته إياه على هذا النحو الذى ذكره ، وقد تمكن الزبير - رضى الله عنه - من تصوير ذلك المشهد ، فأحضره شاخصًا ماثلًا أمام الأعين من خلال جعل الفعل المضارع قالبًا لما اشتمل عليه من أحداث حين قال .. « فأطعن بها فى عينه ، وأطأ برجلى على خده » . وكان ابن الأثير - بما له من تذوق معبرًا عن دلالة هذا العدول .

ومثال ثالث ، لكنه من الشعر يسوقه ابن الأثير فى التعبير بالمضارع عن الماضىوذلك قوله : « وعلى هذا ورد قوله تأبط شرًا :

بأنى قد لقيت الغُول تهوى
بسهب كالصحيفة صحصحان[١٣٠]
فأضربها بلا دهش فخرت
صريعا لليدين وللجران[١٣١]

فإنه قصد أن يصور لقومه الحال التى تشجع فيها على ضرب الغول ، كأنه يبصرهم إياها مشاهدة للتعجب من جراءته على ذلك الهول ، ولو قال « فضربتها » عطفًا ، لزالت هذه الفائدة المذكورة[١٣٢] .

وهذا الذى ذكره ابن الأثير فى بلاغة العدول إلى الفعل المضارع فى « فأضربها » هو كلام جار الله الزمخشرى فقد أورد - رحمه الله - البيتين فى معرض بيانه لبلاغة العدول إلى الفعل المضارع فى الفعل « فتثير » فى الآية الكريمة ﴿ والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابًا فسقاه ﴾ - الآية وعلق على التعبير بالمضارع قائلًا : « لأنه

قصد أن يصور لقومه الحالة التى شجع فيها بزعمه على ضرب الغول ، كأنه يبصرهم إياها ، ويطلعهم على كونها ، مشاهدة للتعجب من جرأته على كل هول وثباته عند كل شدة »[١٣٣] .

هذا كلام الزمخشرى ، نقله عنه ابن الأثير ، كما لم ينسبه إليه جريًا على ديدنه ويضيف ابن الأثير مثالًا رابعًا معدولًا به عن الماضى إذ يقول : « وعليه ورد قوله تعالى أيضًا ، وهو : ﴿ ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه وأحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ﴾[١٣٤] .

فقال أولًا : « خر من السماء » بلفظ الماضى ، ثم عطف عليه المستقبل الذى هو فتخطفه و « تهوى » وإنما عدل فى ذلك إلى المستقبل لاستحضار صورة خطف الطير إياه وهوى الريح به ، والفائدة فى ذلك ما أشرت إليه فيما تقدم ، وكثيرًا ما يراعى أمثال هذا فى القرآن[١٣٥] .

إن التعبير القرآنى يعرض صورة لمن يشرك بالله وما يتعرض له من هلاك ، إنه يرسم مشهدًا عنيفًا يصور حال من تزل قدماه عن أفق التوحيد ، فيهوى إلى درك الشرك ، فإذا هو ضائع ذاهب بددًا ، كأن لم يكن من قبل أبدًا إنه مشهد الهوى من شاهق ، فكأنما خر من السماء » وفى مثل لمح البصر يتمزق « فتخطفه الطير أو تقذف به الريح بعيدًا عن الأنظار ... أو تهوى به الريح فى مكان سحيق فى هوة ليس لها قرار .

والملحوظ هو سرعة الحركة مع عنفها وتعاقب خطواتها فى اللفظ « بالفاء » وفى المنظر بسرعة الاختفاء ... على طريقة القرآن الكريم فى التعبير بالتصوير(١٣٦) .

ولا شك أن التعبير بالفعل المضارع ... فتخطفه الطير أو « تهوى به الريح » كان له أثره البالغ فى جعل هذه الصورة العجيبة - فى عنفها وسرعتها ، وهوى الريح بصاحبها المشرك حيث لا يرى له أثر - حاضرة كالمشاهد أمام العيون .

وقد وضح ابن الأثير ما فى كل من الفعلين .. فتخطفه ، وتهوى من بلاغة .

ويبين ابن الأثير الفرق الدلالى بين التعبير بالفعل الماضى ، والتعبير بالفعل المضارع فكلا الفعلين يعبر عن حدث وهذا الحدث حين يسمع المتلقى التعبير عنه يتخيله لكن ما الفرق بين التخيلين ؟ ذلك ما يجيب عنه شيخنا ضياء الدين إذ يقول : « فإن قيل : إن الفعل الماضى أيضًا يتخيل منه السامع ما يتخيله من المستقبل ؟ قلت فى الجواب : إن التخيل يقع فى الفعلين معًا ، لكنه فى أحدهما وهو المستقبل أوكد وأشد تخيلًا ، لأنه يستحضر صورة الفعل حتى كأن السامع ينظر إلى فاعلها فى حال وجود الفعل منه .

ألا ترى أنه لما قال تأبط شرًا « فأضربها تخيل للسامع أنه مباشر للفعل ، وأنه قائم بإزاء الغول وقد رفع سيفه ليضربها وهذا لا يوجد فى الفعل الماضى ، لأنه لا يتخيل السامع منه إلا فعلًا قد مضى من غير إحضار للصورة فى حالة سماع الكلام الدال عليه ، وهو لا خلاف عليه .

وهكذا يجرى الحكم فى جميع الآيات المذكورة ، وفى الأثر عن الزبير - رضى الله عنه - وفى الأبيات الشعرية(١٣٧) .

وخلاصة كلامه أن التخيل فى الماضى لحدث وقع ، وصار خبرًا من أخبار الماضى بينما فى المضارع التخيل لحدث مستحضر يشاهد كأنه يقع أمام الأعين ومن ثم يكون التخيل فى المضارع أقوى وآكد .

الضرب الثانى : وهو ما سبق أن عبر عنه بقوله « ليس إخبارًا » عن ماض بمستقبل ، وإنما هو مستقبل دل على معنى مستقبل غير ماض ، ويراد به أن ذلك الفعل مستمر الوجود لم يمض .

وذلك أنه فى الضرب الأول كان الحدث فى الفعل المضارع المعطوف ماضيًا ، ولكنه عبر عنه بصيغة المضارع استحضارًا لصورته العجيبة ، أما فى هذا الضرب فالمضارع المعطوف ليس الحدث فيه ماضيًا ، إنما هو حدث يقع ويتوالى حدوثه من وقت لآخر ، ففى صوغه على هذا النحو دلالة الاستمرار التجددى ، وعد ابن الأثير هذا القسم غير بلاغى من حيث إنه لم يعدل فيه عن ظاهر الحال ، لما يمثله هذا العدول من دلالة على شجاعة العربية .

لكن وصفه ذاك لا ينال من كونه من البلاغة بمكان من حيث ما كشف عنه من استمرار تجدد الحدث ، وبه حقق المطابقة الدقيقة لمقتضى الحال .

والأسلوب فى هذا الضرب فيه حدثان : أولهما وقع وانتهى وصار بمثابة الوصف الثابت ، والآخر - وهو المعطوف - يحدث ويتجدد ، فلدينا انتقال من ماض إلى حال حقيقة .

يقول ابن الأثير : وأما الضرب الثانى - الذى هو مستقبل - فكقوله تعالى : ﴿ إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله ﴾[١٣٨] فإنه إنما عطف المستقبل على الماضى ، لأن كفرهم كان ووجد ،

ولم يستجدوا بعده كفرًا ثانيًا ، وصدهم متجدد على الأيام لم يمض كونه ، وإنما هو مستمر ، يستأنف فى كل حين »(١٣٩) .

فالكفر كان منهم ، وثبتوا عليه ، أما الصد فإنه يحدث ثم ينقطع ، ثم يعود وجوده مرة أخرى - وهكذا هذا واعتبار الفعل « يصدون » معطوفًا ليس مسلمًا ، فقد قيل إن « الجملة - أى يصدون - حالية من فاعل كفروا ، على تقدير مبتدأ محذوف (١٤٠) كما جوز أن تكون حالاً من غير تقدير مبتدأ لشبهها بالجملة الأسمية معنى »(١٤١) .

وخبر إن محذوف لدلالة الآية الكريمة عليه ، فإن من ألحد فى الحرم حيث عوقب بالعذاب الأليم ، فلأن يعاقب من جمع إليه الكفر والصد عن سبيل الله بأشد من ذلك أولى »(١٤٢) .

والتعبير بالفعل المضارع فى الآية الكريمة أضاف إلى الكفر استمرار محاولات الإضلال ، وقد حذف خبر المبتدأ تعظيمًا للوعيد الذى يترتب على الكفر واستمرار الصد كليهما ، وكأن فى هذا دعوة للذين يصدون عن سبيل الله أنهم إن تخلوا عن هذا الصد كانوا بمنأى من هذا الوعيد الشديد ، كما كانوا على مقربة من الاهتداء الأمر الذى يغرى الدعاة إلى الله بالبدء بدعوة من لم يجمع إلى الكفر استمرار الصد عن سبيل الله ، كما يحفزهم إلى مزيد من الجهد فى مواجهة أولئك الذين يصدون عن سبيل الهدى ، يقول البقاعى - رحمه الله - « ولعله إنما عبر بالمضارع رحمة منه لهم ، ليكون كالشرط فى الكفر »(١٤٣) .

ويسوق ابن الأثير مثالاً آخر لعطف المضارع على الماضى فى هذه الحال التى يراد به فيها الاستمرار التجددى فيقول : « وكذلك

ورد قوله تعالى ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة ﴾(١٤٤) .

ألا ترى كيف عدل عن لفظ الماضى هاهنا إلى المستقبل فقال : « فتصبح الأرض مخضرة » ؟ ولم يقل : فأصبحت عطفًا على « أنزل » وذلك لإفادة بقاء أثر المطر زمانًا بعد زمان فإنزال الماء مضى وجوده ، وإخضرار الأرض باق لم يمض ، وهذا كما تقول أنعم علىّ فلان فأروح وأغدو شاكرًا له « ولو قلت : فرحت وغدوت شاكرًا له ، لم يقع ذلك الموقع ، لأنه يدل على ماض قد كان وانقضى . وهذا موضع حسن ينبغى أن يتأمل »(١٤٥) .

التعبير بالمضارع معطوفًا بالفاء دل على أمرين :

كون اخضرار الأرض أثرًا ترتب على إنزال الماء من السماء ، وكون هذا الاخضرار أمرًا يبقى بعد نزول الماء ، إذ يحدث ويتجدد من وقت لآخر ، ولعل فى هذا ما يلفتنا إلى أن الماء الذى أنزل يشمل ما روى سطح الأرض ، وما استكن فى جوفها ، ومن هذا الذى أسكنه الله فى جوفها تتوالى وتتجدد مظاهر الإخضرار وقد امتن الله تعالى بإسكان الماء الذى هو مصدر الحياة فى الأرض بعد إنزاله ، حيث قال تعالى : ﴿ وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون ﴾(١٤٦) .

هذا وما قاله ابن الأثير فى بلاغة التعبير بالفعل المضارع « فتصبح » هو عين ما قاله جار الله الزمخشرى ، نقله عنه ابن الأثير ، دون نسبته إليه ، وها هو ذا ما قاله الزمخشرى فى هذا الفعل .

« هلا قيل فأصبحت ؟ ولم صرف إلى لفظ المضارع ؟ قلت : لنكته فيه وهى إفادة بقاء أثر المطر زمانًا ، كما تقول : أنعم على

فلان فأروح وأغدو شاكرًا له ، ولو قلت : فرحت وغدوت لم يقع ذلك الموقع(١٤٧) .

الإخبار بالماضى عن المستقبل :

هناك أحداث - لا محالة واقعة ، بيد أن وقوعها فى المستقبل ، وقد نوزع فيها ، واعترضها من الجاحدين التشكيك والإنكار ، فعدل - فى التعبير بها - من المستقبل إلى الماضى ، ليكون فى هذا العدول لفت الأنظار إلى حتمية وقوعها ، وتأكيده وكأنها صارت أمرًا مفروغًا منه قد كان وانتهى ، فأخبر عنه بصيغة الماضى ، وفى هذا النوع من العدول يقول ابن الأثير :

« وأما الإِخبار بالفعل الماضى عن المستقبل فهو عكس ما تقدم ذكره ، وفائدته أن الفعل الماضى إذا أخبر به عن الفعل المستقبل الذى لم يوجد بعد ، كان ذلك أبلغ وآكد فى تحقيق الفعل وإيجاده ، لأن الفعل الماضى يعطى من المعنى أنه قد كان ووجد ، وإنما يفعل ذلك إذا كان الفعل المستقبل من الأشياء العظيمة التى يستعظم وجودها .

والفرق بينه وبين الإِخبار بالفعل المستقبل عن الماضى أن الغرض بذاك تبيين هيئة الفعل ، واستحضار صورته ، ليكون السامع كأنه يشاهدها ، والغرض بهذا هو الدلالة على إيجاد الفعل الذى لم يوجد بعد . فمن أمثلة الإِخبار بالفعل الماضى عن المستقبل قوله تعالى : ﴿ ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الأرض ﴾(١٤٨) .

فإنه إنما قال ﴿ ففزع ﴾ بلفظ الماضى بعد قوله ﴿ ينفخ ﴾ وهو مستقبل - للإِشعار بتحقق الفزع ، وأنه كائن لا محالة ، لأن الفعل الماضى يدل على وجود الفعل ، وكونه مقطوعًا به »(١٤٩) .

تخبر الآية الكريمة عن أثر النفخ فى الصور النفخة الأولى وهذا الأثر هو موضع العناية لذا عبر عنه بصيغة الفعل الماضى « ففزع » وهذا الفزع يغشاهم إذ يصعقون بعد هذه النفخة ، كما صرح به فى آية أخرى إذ يقول تعالى « ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا ما شاء الله » ولما كان هذا الفزع واقعًا لا محالة عبر عنه بصيغة الماضى تحقيقًا لوقوعه ، والخبر صادر من القوى العزيز ، ولا يقدر على هذا التعبير وعلى تنفيذه إلا هو - سبحانه - وما قاله ابن الأثير ترديد لكلام الزمخشرى فى بلاغة التعبير بالفعل الماضى فى الآية ، إذ يقول - رحمه الله -: « فإن قلت : لم قيل : « ففزع » دون فيفزع ؟ قلت : لنكتة وهى الإِشعار بتحقق الفزع وثبوته وأنه كائن لا محالة واقع على أهل السموات والأرض ، لأن الفعل الماضى يدل على وجود الفعل مقطوعًا به »[١٥٠] وكدأب ابن الأثير فى كل ما نقله ، فإنه لا ينسب ما قاله إلى جار الله الزمخشرى .

ثم يسوق شاهدًا آخر من القرآن الكريم أيضًا ، للتعبير بالماضى عن المستقبل فيقول : « وكذلك قوله تعالى : ﴿ ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدًا ﴾[١٥١] وإنما قيل : « وحشرناهم » ماضيًا بعد « ونسير » و « ترى » - وهما مستقبلان - للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير والبروز ، ليشاهدوا تلك الأحوال ، كأنه قال : وحشرناهم قبل ذلك ، لأن الحشر هو المهم ، لأن من الناس من ينكره ، كالفلاسفة وغيرهم ، ومن أجل ذلك ذكر بلفظ الماضى »[١٥٢] .

الإِخبار هنا عن الحشر - وهو لمَّا يقع - بالفعل الماضى بينما سبقه « نسيرالجبال وترى الأرض بارزة ، هو كالإِخبار فى « فزع »

بعد « ويوم ينفخ فى الصور » قصد بكل منهما تأكيد الوقوع ، واختير له ما يشعر أنه قد كان .

هذا والتعبير عن الفعل الماضى بالفعل المضارع ، وعن المستقبل بلفظ الماضى - كلاهما لدى المتأخرين من المجاز اللغوى ، على أنه مما يحتمل المجاز المرسل أو الاستعارة التبعية فى الفعل باعتبار زمنه فقد قال السبكى :

« ثم إن التعبير عن المستقبل بلفظ الماضى يحتمل أن يكون من المجاز المرسل ، والعلاقة ما بينهما من التضاد ، والضد أقرب خطورًا بالبال ، فبينهما شبه المجاورة لتقاربهما - غالبًا - فى الخيال ، وعليه فتنتفى المبالغة المقصودة ، وهى الإشعار بتحقق الوقوع ، وأن هذا المستقبل كالماضى ، لأن المجاز المرسل ليس فيه إلا - أبلغية كون التعبير فيه لما كانت الدلالة فيه انتقالية صار كدعوى الشئ بدليله .

ويحتمل أن يكون من مجاز التشبيه ووجه الشبه تحقق الوقوع فى كل منهما وهو فى المضى أظهر لبروزه إلى الوجود فيفيد المبالغة السابقة لكن المعهود فى الفعل أن استعارته تبعية ، فيكون التشبيه فى المصدر ، وهو فى الماضى والمستقبل واحد فيتحد المشبه والمشبه به ، ويمكن أن يجاب بأن المصدرين الواقع التشبيه فيهما : مصدر مقيد بالوقوع فى المضى ، ومصدر مقيد بالوقوع فى المستقبل ، وتكون التبعية فى مجرد التعبير بالفعل فيكون الزمان والحصول داخلين فى التشبيه »(١٥٣) .

ويذكر العلامة الدسوقى فى حاشيته على شرح مختصر السعد هذا الذى ذكره السبكى ، بيد أنه أكثر إحاطة فى بيان الوجه فى كل من الحالين على أنهما من الاستعارة التبعية حيث قال : « ويحتمل أن يكون من مجاز التشبيه ووجه الشبه تحقق الوقوع فى

كل منهما بالنسبة للتعبير عن المستقبل بالماضى وأما وجه الشبه فى عكسه فهو كون كل نصب العين مشاهدًا ... وهذا - وإن كان من وظيفة البيان لكن من حيث إن الداعى إليه التنبيه المذكور من وظيفة علم المعانى »[١٥٤] .

وأيًا كانت النظرة إلى هذا العدول عن المستقبل إلى الماضى ، أو عن الماضى إلى المضارع ، فالذى ينبغى العناية به هو إدراك سره البلاغى ، وفقه دلالته التعبيرية .

وأخيرًا يعرض الشيخ ابن الأثير صورة من صور الالتفات عنده ، يضيفها إلى الالتفات فى الافعال وهى التعبير باسم المفعول عن الفعل المستقبل حيث يقول : « ومما يجرى هذا المجرى الإخبار باسم المفعول عن الفعل المستقبل ، وإنما يفعل ذلك لتضمنه معنى الفعل الماضى ، وقد سبق الكلام عليه » فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود ﴾[١٥٥] فإنه إنما آثر اسم المفعول الذى هو « مجموع » على الفعل المستقبل الذى هو « يجمع » لما فيه من الدلالة على ثبات معنى الجمع لليوم ، وأنه الموصوف بهذه الصفة ، وإن شئت فوازن بينه وبين قوله تعالى : ﴿ يوم يجمعكم ليوم الجمع ﴾[١٥٦] فإنك تعثر على صحة ما قلت »[١٥٧] .

وهذا الذى ذكره من بلاغة التعبير باسم المفعول فى موضع التعبير بالفعل .. لا فضل له فيه إلا النقل عن جار الله الزمخشرى ، ثم نسبة ما نقله إلى نفسه ، فقد قال جار الله - عليه سحائب الرحمة : « فإن قلت : لأى فائدة أوثر اسم المفعول على فعله ؟

قلت : لما فى اسم المفعول من دلالة على ثبات معنى الجمع لليوم ، وأنه يوم لابد من أن يكون ميعادًا مضروبًا لجمع الناس له ،

وأنه الموصوف بذلك صفة لازمة ، وهو أثبت أيضًا لإسناد الجمع إلى الناس ، وأنهم لا ينفكون منه ، ونظيره قول المتهدد : إنك لمنهوب مالك ، مخروب قومك ، فيه من تمكن الوصف وثباته ما ليس فى الفعل وإن شئت فوازن بينه وبين قوله : يوم يجمعكم ليوم الجمع « تعثر على صحة ما قلت لك »(١٥٨) .

وهكذا فخر ابن الأثير وزها بما ليس له وهذا شأنه ودأبه - كما رأينا ذلك من قبل .

هذا والخطيب القزوينى قد عد كلًّا من التعبير عن المستقبل بالماضى ، وعنه باسم المفعول ... من صور تخريج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر(١٥٩) وهما عنده ليسا من الالتفات فى شيء .

(٢)

الالتفات فى كتابيه

الجامع الكبير ، وكفاية الطالب

أولًا : الالتفات فى الجامع الكبير :

نفضل هنا أن يكون عملنا هو الاكتفاء بالعرض المجرد - دون تعليق على ما جاء فى بيان الأسرار البلاغية للالتفات ، حتى لا نكرر ما سبق أن قلناه حين عرضنا الالتفات فى « المثل السائر » ونؤخر ما نراه فى نسبة الكتاب إليه إلى ما بعد هذا العرض - فإلى ما جاء فى الجامع الكبير خاصًا بالالتفات .

النوع الثالث

من الباب الأول فى شجاعة العربية(١٦٠)

وهو نوع من علم البيان تتكاثر لطائفه ، وتتوفر محاسنه ، لأن معظم البلاغة مدرجة فى أثنائه ، ومنطوية تحت ضروبه ، إلا أنى لم أجد شيئًا منه عند أرباب هذه الصناعة ، ولا وجدته فى كتاب مصنف فى هذا الفن ، سوى أنى رأيت أبا الفتح عثمان بن جنى قد ذكر فى كتابه الموسوم بالخصائص ، شيئًا من التقديم والتأخير ، والحمل على المعنى لا غير ، وقد ذكرنا نحن فى هذا النوع أشياء عجيبة ، ونكتا طريفة ، عثرنا عليها فى أثناء القرآن الكريم ، واعلم أن هذا النوع ينقسم ستة أقسام :

القسم الأول فى الالتفات

(الالتفات) الرجوع من الغيبة إلى الخطاب ، ومن الخطاب إلى الغيبة ، يفعل ذلك على عادة العرب فى افتنانهم فى الكلام ، وفيه فوائد كثيرة ، لأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان أحسن تطرية لنشاط السامع ، وإيقاظًا للإصغاء إليه ، من إجرائه على أسلوب واحد ، وليس يفعل ذلك اتساعًا فقط بل لأمر أعلى ، ومهم من الغرض أعنى ، فأما الرجوع من الغيبة إلى الخطاب فكقوله تعالى فى سورة الفاتحة : ﴿ الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ ، هذا رجوع (من) الغيبة إلى الخطاب ومما يختص به هذا الكلام من الفوائد ، أنه ذكر الحقيق بالحمد وأجرى عليه تلك الصفات العظام من الربوبية العامة ، وللملك الخاص ، فعلم العالم بمعلوم عظيم الشأن حقيق بالخضوع له ، والاستعانة فى المهمات به فخوطب ذلك المعلوم الموصوف بتلك الصفات فقيل : إياك نعبد يا من هذه صفاته ، أى نخص بالعبادة والاستعانة ، ليكون أدل على العبادة ، لذلك التميز الذى لا تحق العبادة إلا به ، فإن قوله : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ بعد قوله : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ ليس العدول فيه من الغيبة إلى الخطاب إتساعًا إنما عدل إليه لفائدة حسنة ، وذلك أن الحمد لله دون العبادة ، ألا تراك تحمد نظيرك ولا تعبده ، فلما كان الحال كذلك استعمل لفظ « الحمد » لتوسطه مع الغيبة فى الخبر ، فقال « الحمد لله » ولم يقل « لك » ، ولما صار إلى العبادة التى هى أقصى الطاعات قال : « إياك نعبد » فخاطب العباد[١٦١] إصراحًا بها ، وتقربًا منه - عز اسمه -

بالانتهاء إلى محدود منها وعلى نحو من ذاك جاء آخر السورة فقال : ﴿ صراط الذين أنعمت عليهم ﴾ فأصرح بالخطاب لما ذكر النعمة ، ثم قال : « غير المغضوب عليهم » ولم يقل غير الذين غضب[١٦٢] عليهم ، لأن الأول موضوع التقرب إلى الله بذكر نعمه لما صار إلى ذكر الغضب قال : « غير المغضوب عليهم » فجاء باللفظ منحرفًا عن ذكر الغضب ، فأسند النعمة إليه لفظًا ، وزوى عنه ذكر الغضب تحسنًا ولطفًا ، فانظر إلى هذه اللغة الشريفة وتناسب هذه المعانى اللطيفة التى الأقدام (لا) تكاد تطؤها ، والأفهام مع تقربها صافحة عنها .

ومن هذا الجنس قوله تعالى : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئا إدًا ﴾[١٦٣] فقوله : « لقد جئتم » وما فيه من المخاطبة بعد الغيبة زيادة تنكيل[١٦٤] عليهم ، بالجرأة على الله عز وجل والتعرض لسخطه ، وتنبيه لهم ، على عظم ما قالوه ، وأمثال هذا كثيرة فاعرفه .

وأما الرجوع من الخطاب إلى الغيبة فقوله - عز اسمه - « هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين »[١٦٥] ألا ترى كيف صرف الكلام هاهنا من الخطاب إلى الغيبة ؟ وإنما فعل ذلك لفائدة ، وهو أنه ذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ، كالمخبر لهم ، ويستدعى منهم الإنكار عليهم والتقبيح ، ولو قال : حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بكم بريح طيبة وفرحتم بها . وساق الخطاب معهم إلى آخر الآية ، لذهبت تلك الفائدة التى أنتجها خطاب الغيبة . وليس ذلك بخاف عن (عارف) هذا الكلام فاعرفه .

ومن هذا الجنس قوله تعالى : ﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون وتقطعوا أمرهم بينهم كل إلينا راجعون ﴾(١٦٦) . الأصل فى تقطعوا « تقطعتم » عطفًا على الأول إلا أنه صرف الكلام من الخطاب إلى الغيبة على طريقة الالتفات ، كأنه ينعى عليهم ما أفسدوه إلى قوم آخرين ، ويقبح عندهم ما فعلوه ، ويقول : ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء فى دين الله ، فجعلوا أمر دينهم إلى ما بينهم قطعًا ، وذلك تمثيل لاختلافهم فيه وتباينهم ، ثم توعدهم بعد ذلك بأن هؤلاء الفرق المختلفة إليه يرجعون ، فهو مجازيهم على ما فعلوا .

ومما ينخرط فى هذا السلك أيضًا قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعًا الذى له ملك السموات والأرض فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته ﴾(١٦٧) الآية فإنه إنما قال : « فآمنوا بالله ورسوله » ولم يقل : فآمنوا بالله وبى ، حيث قال أولًا : إنى رسول الله إليكم ، لكى تجرى عليه الصفات التى أجريت عليه وليعلم أن الذى وجب الإيمان به والاتباع (له) هو هذا الشخص المستقل بأنه النبى الأمى ، الذى يؤمن بالله وكلماته ، كائنا من كان أنا أو غيرى ، إظهارًا للنصف ، وبعدًا عن التعصب لنفسه ، فقرر أولا فى صدر الآية ، أنه رسول إلى الناس ، وأثبت ذلك فى أنفسهم ، ثم أخرج كلامه من الخطاب إلى معرض الغيبة لغرضين كبيرين قد ذكرتهما .

الضرب الثانى : الرجوع من الفعل المستقبل إلى الفعل الأمر ، يفعل ذلك تعظيمًا لحال من أجرى عليه فعل الأمر فمما جاء منه قوله تعالى : ﴿ يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إنى أشهد الله واشهدوا أنى برئ مما تشركون ﴾ (١٦٨) - ولم

يقل : « وأشهدكم »ليكون موازنًا له وبمعناه ، لأن إشهاد الله على البراءة من الشرك صحيح ثابت فى معنى يثبت التوحيد ، ويشد معاقده . وأما إشهادهم فما هو إلا تهاون بدينهم ، ودلالة على قلة المبالاة بهم ، ولذلك عدل به عن لفظ الأول ، لاختلاف ما بينهما وجئ به على لفظ الأمر ، كما يقول الرجل لمن يبس الثرى بينه وبينه : اشهد على أنى إحبك . تهكمًا به واستهانة بحاله . وأمثال هذه كثيرة فاعرفها .

الضرب الثالث : الرجوع من خطاب الثنية إلى خطاب الجمع ، ومن خطاب الجمع إلى خطاب الواحد .

فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة ، وأقيموا الصلاة ، وبشر المؤمنين ﴾[١٦٩] . ألا ترى إلى هذا المعنى والتوسع فى الكلام فإنه نوع الخطاب : فثنى ثم جمع ثم وحد ، فخاطب موسى وهارون - عليهما السلام - بالنبوة والاختيار ، وذلك مما يفوض إلى الأنبياء . ثم ساق الخطاب لهما ولقومهما باتخاذ المساجد ، وإقامة الصلاة ، كأن ذلك واجب على الجمهور ، ثم خص موسى - صلوات الله عليه - بالبشارة التى هى الغرض تعظيمًا له وتفخيمًا لأمره ، ولأنه الرسول على الحقيقة .

ومن هذا النحو قوله تعالى : حكاية عن حبيب النجار ﴿ ومالى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون ﴾[١٧٠] هذا عدول عن خطاب الواحد ، إلى خطاب الجماعة . وإنما صرف الكلام عن خطاب نفسه إلى خطابهم لأنه أبرز الكلام لهم فى معرض المناصحة لنفسه ، وهو يريد مناصحتهم ، ليلطف بهم ، ويداريهم ، ولأن ذلك أدخل فى إمحاض النصح ، حيث لا يريد لهم إلا ما يريد لنفسه ، وقد

وضع قوله : ﴿ ومالى لا أعبد الذى فطرنى ﴾ مكان قوله : وما لكم لا تعبدون الذى فطركم ، ألا ترى إلى قوله « وإليه ترجعون » ولولا أنه قصد ذلك لقال : الذىفطرنى وإليه أرجع ، وقد ساقه ذلك المساق إلى أن قال : ﴿ إنى آمنت بربكم فاسمعون ﴾(١٧١) يريد فاسمعوا قولى وأطيعونى ، فقد نبَّهتكم على الصحيح الذى لا معدل عنه ، لأنه العبادة لا تصح إلا لمن منه مبتدؤكم ، وإليه مرجعكم .

فانظر أيها المتأمل لكتابنا هذا ، إلى هذه الدقائق التى أشرنا إليها فى غضون هذا الكلام ، فإن فيها ما شئت من اللطائف اللطيفة ، والفوائد العجيبة .

القسم الثالث من النوع الثالث

فى الإِخبار عن الفعل الماضى بالمضارع

وعن الفعل المضارع بالماضى

وهو قسم من التأليف ، لطيف المأخذ ، دقيق المغزى ، فالأول : الإِخبار بالفعل المضارع عن الماضى ، اعلم أن الفعل المضارع إذا أتى به فى حال الإِخبار عن وجود الفعل كان ذلك أبلغ من الإِخبار بالفعل الماضى ، وذلك لأن الفعل المضارع يوضح الحال الذى يقع فيها ، ويستحضر تلك الصورة حتى كأن السامع يشاهدها ، وليس كذلك الفعل الماضى ، فمما جاء قوله تعالى : ﴿ والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابًا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور ﴾ (١٧٢) ، فإنه إنما قيل : فتثير سحابا ، مضارعا ، وما قبله وبعده ماض ، لذلك المعنى الذى أشرنا إليه ، وهو حكاية الحال التى يقع فيها إثارة الريح السحاب واستحضار تلك الصورة

البديعة ، الدالة على القدرة الباهرة ، وهكذا يفعلون بكل فعل فيه نوع تمييز وخصوصية بحال تستغرب أو تهم المخاطب أو غير ذلك كما قال تأبط شرًا :

فإنى قد لقيت الغول تهوى
بسهب كالصحيفة صحصحان
فاضربها بلا دهش فخرت
صريعا لليدين وللجران

لأنه قصد أن يصور لقومه ، الحال التى تشجع فيها على ضرب الغول ، كأنه يبصرهم إياها ويطلعهم على كونها مشاهدة ، للتعجب من جرأته على ذلك الهول ، وثباته عند تلك الشدة . ولو قال فضربتها لزالت هذه الفائدة التى ذكرناها ونبهنا عليها .

ومن هذا الباب قوله تعالى : ﴿ ألم تر أنَّ الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير »[١٧٣] ألا ترى كيف عدل عن لفظ الماضى هاهنا إلى المضارع فقال : « فتصبح » وذلك لإفادة بقاء المطر زمانًا بعد زمان كما يقال : « أنعم على فلان عام كذا فأروح وأغدو شاكرًا له » ولو قال : « فرحت وغدوت شاكرًا له » لم يقع ذلك الموقع فافهم ما أشرنا إليه وتدبر دقائقه .

وأما الإخبار بالفعل الماضى عن المضارع ، فهو عكس ما تقدم ذكره ، وفائدته : أن الفعل الماضى إذا أخبر به عن الفعل المضارع إذا لم يوجد بعد ، كان أبلغ وآكد ، وأعظم موقعًا » .

وبعد هذا العرض للالتفات فى هذا الكتاب « الجامع الكبير » يرجح عندى عدم نسبة الكتاب إلى ضياء الدين بن الأثير ، ويدعم ذلك :

١ - أن الثقات من العلماء نسبوا هذا الكتاب إلى أخيه ومن هؤلاء بهاء الدين السبكى فى عروس الأفراح إذ عرض - بأمانة وتواضع المراجع التى عول عليها فى تأليفه كتابه عروس الأفراح ، وذكر بينها : « المثل السائر لضياء الدين بن الأثير ، والجامع الكبير لأخيه »(١٧٤) ثم قال فى موضع آخر وهو يناقش أمورًا بعضها يمكن أن يقال أن الخلوص منه شرط لفصاحة المفرد ، وعرض لمسألة زيادة حروف إحدى الكلمتين على الأخرى وعلاقة ذلك بالفصاحة ، ثم قال : « ... ثم كون زيادة الحروف دائمًا لزيادة المعنى المراد به أن يكونا لمعنى واحد ، ومادة واحدة فخرج بالأول نحو علم واستعلم ..، وبالثانى المادتان المستقلتان فلا تفاضل بينها .

ومن الغريب أن التنوخى نقل عن بعض الناس أن صيغة « فاعل » أبلغ من فعيل لكثرة استعمالها ، وذكره ابن الأثير فى « المثل السائر » ، وأخوه فى الجامع ، وقال : لأن اسم الفاعل لا يكون إلا بمعنى الفاعل والفاعل قوى ، وفعيل يكون بمعنى الفاعل والمفعول فهو دائر بين قوى وضعيف ، وما يختص بقوى أبلغ مما دار بين قوى وضعيف ...»(١٧٥).

كما أن صاحب كشف الظنون نسب الجامع إلى ابن الأثير على بن محمدّ الجزرى صاحب الكامل المتوفى سنة ٦٣٠هـ »(١٧٦) وهذا هو عز الدين .

وإلى جانب هذا فإن بعض الباحثين العصريين كان قد نسب الجامع إلى ضياء الدين(١٧٧) ، ثم عاد فتراجع عن ذلك ورجح نسبته إلى أخيه عز الدين(١٧٨) .

على أن كثيرًا ممن ترجموا ضياء الدين لم يذكروا هذا الكتاب ضمن مؤلفاته ، حيث لم يذكره ابن خلكان(١٧٩) ولا اليافعى فى مرآة الجنان(١٨٠) .

ولا السيوطى فى بغية الوعاة(١٨١) ، ولا ابن العماد فى شذرات الذهب(١٨٢) .

هذا من حيث توثيق العلماء لنسبة هذا الكتاب ، أما من حيث المنهج فإنه يقوى أيضًا عدم نسبة الجامع إلى ضياء الدين ... نعم – إن ثمة اتفاقًا كبيرًا فى بعض العبارات فى الكتابين ، وكذا فى كثير من طرق عرض الموضوعات ، لكن يبدو فى كل من الكتابين اختلاف الشخصية ، فبينما نرى – فى المثل السائر – شخصية ضياء الدين بزهوها ، واعتدادها البالغ بنفسها ، والتقليل من شأن غيرها إلى جانب الاستشهاد بما هو من إنشائه ... لا نرى شيئًا من ذلك فى الجامع ، كما أن فيه (أى الجامع) ميلًا إلى التحديد وكثرة التقسيم اللذين هما طابع العصر الذى عاشا فيه ، ولا يوجد ذلك فى المثل السائر .

* * *

ثانيًا : الالتفات فى كتاب

كفاية الطالب فى نقد كلام الشاعر والكاتب

ونؤثر هنا أيضًا ما جاء خاصًا بالالتفات فى هذا الكتاب دون ما إضافة أو حذف ... ثم نردفه بما نراه من ترجيحنا عدم صحة نسبة هذا الكتاب إلى ضياء الدين بن الأثير ، مع ذكرنا أدلة هذا الترجيح ، فلنطالع أولًا ... ما قيل فى باب : الالتفات فى كفاية الطالب :

باب الالتفات(١٨٣)

وسماه قوم الاعتراض ، وآخرون الاستدراك ، وهما نوعان منه ، وهو أن يأخذ الشاعر فى معنى فيعرض له غيره ، فيعدل إليه قبل تمامه ، ثم يعود إلى الأول فيتممه من غير أن يخل فى الثانى بشئ .

ومنزلته فى وسط البيت كمنزلة الاستطراد فى آخره ، وإن كان ضده فى التحصيل ، لأنك تأتى بالالتفات عفوًا وانتهازًا ، ولم يكن ذلك فى خلد فتقطع له كلامك ثم تصله بعد ، والاستطراد تقصده فى نفسك ، وتحيد عنه فى لفظك ، حتى تصل به كلامك عند انقطاع آخره ، وتلقيه وتعود إلى ما كنت فيه ، كقول جرير يرثى امرأته أم حزرة .

نعم القرين - وكنت عِلْقَ مضنَّةٍ -

وَارَى بِنَعْفِ بُلَيَّة الأحجار

قوله : « وكنت علق مضنة » التفات .

وقول عوف بن محلم لعبد الله بن طاهر :

إن الثمانين - وبلغتها - قد أحوجت سمعى إلى ترجمان

وقد عد جماعة قوله : « وبلغتها » تتميما ، والالتفات أشكل به ، وأدل بمعناه .

وقول العباس بن الأحنف ، وقد أحسن ما شاء :

قد كنت أبكى وأنت راضية حذار هذا الصدود والغضب
أن تمَّ ذا الهجر يا ظلوم - ولا تَمَّ - فما لى فى العيش من أرب

وقد يجئ فى آخر البيت كقول جرير :

متى كان الخيام بذى طلوح سقيت الغيث أيتها الخيام

* وحكى عن إسحاق الموصلى أنه قال : قال لى الأصمعى : أتعرف التفات جرير ؟ قلت : وما هو ؟ فأنشدنى :

أتنسى إذا تودعنا سليمى بفرع بشامة ، سقى البشام

ثم قال : أما تراه مقبلا على شعره إذ التفت إلى الشام فدعا له ؟

ولا يعد ابن المعتز التفاتا إلا ما كان من هذا النوع ، وقال : هو انصراف المتكلم عن الإخبار إلى المخاطبة ، وعن المخاطبة إلى الإخبار ، وتلا قوله تعالى : ﴿ حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة ﴾[١٨٤] .

ومن أنواعه الاعتراض كقول كثير :

لو ان الباخلين - وأنت منهم رأوك تعلموا منك المطالا

قوله : « وأنت منهم » اعتراض كلام فى كلام .

وقول الذبياني :

ألا زعمت بنو عبس بأنى ألا كذبوا كبير السن بالى

قوله : « ألا كذبوا » اعتراض .

ومن أحسن الاعتراض قول نصيب :

فكدت - ولم أخلق من الطير - أن بدا

سنا بارق نحو الحجاز أطير

قوله : « ولم أخلق من الطير « اعتراض عجيب ولما سمعت معشوقته هذا البيت تنفست نفسًا شديدًا ، فصاح ابن أبى عتيق : أوه والله أجبته بأحسن من شعره ، ولو سمعك لنعق ، وطار ، فجعله غرابًا لسواده .

ومن أنواعه الاستدراك ، كقول زهير :

حيّ الديار التى لم يعفها القدم

بلى وغيرها الأرواح والديم

ومثله قول جرير :

غدًا باجتماع الحى نقْضِى لُبانةً

وأقسم لا تُقْضَى لبَانتنا غدًا

ومن نوعهما قول بشار :

نبئت فاضح أمه يغتابنى عند الأمير وهل على أمير؟

قوله : « وهل على أمير »؟ « استدراك » .

* * *

وبعد عرضنا للموضوع - كما جاء فى كفاية الطالب نقول :

لا يوجد ما يطمئننا إلى نسبة هذا الكتاب إلى ابن الأثير ، إذ لم ترد إشارة إليه فى كتب التراجم ، ولم تذكره ضمن كتب ابن الأثير الأديب الناقد ، اللهم إلا كتاب « الأعلام » للزركلى حيث قال وهو يعدد مؤلفاته :

« ومن تآليفه : المثل السائر ... وكفاية الطالب فى نقد كلام الشاعر والكاتب رأيته فى خزانة محمد سرور الصبان بجدة « والمفتاح المنشأ لحديقة الإنشاء ، والمعانى المخترعة فى صناعة الإنشاء ، والوشى المرقوم فى حل المنظوم ، والجامع الكبير - ط فى صناعة المنظوم والمنثور ، والبرهان فى علم البيان » [١٨٥] .

فكل ما عرفه الزركلى عن الكتاب أنه رآه مخطوطًا فى خزانة محمد سرور الصبان بجدة ورآه منسوبًا إلى ضياء الدين بن الأثير الجزرى .

ولم يذكر سببًا ما يؤكد نسبته إليه ، وبعد قراءتنا لما جاء عن الالتفات فى هذا الكتاب نضيف إلى ما تقدم مما يرجح عدم نسبة الكتاب إلى ضياء الدين بن الأثير :

١ - أن ما جاء عن الالتفات هنا كله نقل عن كتاب « العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده »[١٨٦] لابن رشيق القيروانى مع شئ من الاختلاف فى ترتيب الأمثلة ، وابن رشيق القيروانى كان فى الفترة ما بين (٣٩٠- ٤٥٦هـ) ولم تكن البلاغة فى منتصف القرن الخامس الهجرى قد نضجت بنفس المستوى الذى وصلت إليه فى عصر ابن الأثير الذى يجمع بين نهاية القرن السادس وما يقرب من منتصف السابع (٥٥٨- ٦٣٧هـ) . فليس من المعقول أن ينقل ابن الأثير نقلًا عن عصر يبدو فيه التغاير الكبير لطبيعة عصره .

٢ - الأسلوب هنا ، وطريقة عرض الموضوع يباينان ما عرف عن ابن الأثير من اعتماد على السجع فى كلامه ، محاكيًا أستاذه القاضى الفاضل ، إلى جانب إفاضته فى التعليق على الأمثلة .

٣ - خلا الموضوع تمامًا من أى حديث عن الاعتداد بالنفس ، والتنبيه إلى الابتكار والسبق .. مع الزهو ، والتقليل من شأن الآخرين ، وليس ذلك من طبع ابن الأثير .

٤ - ليس فى أمثلة الباب مثال واحد من القرآن الكريم ، ولا من الحديث النبوى الشريف ، بينما عرف ابن الأثير بكثرة استشهاده بهما .

٥ - فى هذا الباب : الالتفات عَدَّ الاعتراض قسمًا منه ، بل إن الباب صدّر به ، فقد جاء فى أوله : « وسماه قوم الاعتراض وآخرون الاستدراك ، وهما نوعان منه ، وهو أن يأخذ الشاعر فى معنى فيعرض له غيره ، فيعدل إليه قبل تمامه ، ثم يعود إلى الأول فيتممه من غير أن يخل فى الثانى بشئ » .

بينما صار الاعتراض بابًا مستقلًا من أبواب البلاغة عصر ابن الأثير وقد خصص هو نفسه له بابًا فى كتابه « المثل السائر » وجعل له حيزًا واسعًا قرابة عشر صفحات (من صفحة ٤٠ إلى صفحة ٣٩ من الجزء الثالث من الكتاب ، ومن عجب أنه لم يشر بكلمة واحدة تدل على أنه سبق له تناوله فى هذا الكتاب : كفاية الطالب .

٦ - يبدو أن محقق الكتاب لم يطبق على الكتاب مدى تطابقه مع أهم الخصائص الخلقية والأسلوبية لمن نسبه إليه ، ولعله أيضًا لم يحاول التعرف على شئ من هذه الخصائص ولو أنه حاول لوجد ما

يهديه لدى ابن أبى الحديد الذى أخذ على ابن الأثير من صفاته الخلقية مثالب :

« .. منها ازدراؤه على الفضلاء ، وغضه منهم ، وعيبه لهم ، وطعنه فيهم ... ومنها إفراطه فى الإعجاب بنفسه ، والتبجح برأيه ، والتقريظ لمعرفته وصناعته . ومنها أنه قد أومأ مرارًا فى كتابه إلى عتاب دهره ، إذ لم يعطه على قدر استحقاقه[١٨٧] » .

كما ذكر أن من أهم خصائصه فى كتاباته « .. أن كتابته كلها إذا تأملها العارف بهذا الفن وجدها .. إما : محلول منظوم ، أو ترصيع آية ، أو خبر ، أو مثل أو واقعة ..»[١٨٨] .

* * *

خاتمة البحث

ليس يخفى على علماء البيان والنقد أن ضياء الدين بن الأثير مؤلف وأديب ، قرر أن الجمال البيانى[١٨٩] لا نهاية له ، وعول على الموهبة فى كيان الأديب[١٩٠] ، وعلى الذوق فى النقد [١٩١] ، وأنه ذو ثقافة واسعة تقوم على دعائم راسخة من حفظ للقرآن الكريم ولكثير من الأحاديث النبوية الشريفة ، وللعديد من مختارات الشعر العربى ، وله فى الكتابة طريقته التى تعتمد على السجع ، وكان يحاكى القاضى الفاضل . فى كثير من خصائصه فى فن الكتابة[١٩٢] .

ودراستنا للالتفات عنده تؤكد لنا سعة ثقافته ، وإطلاعه على ما سبق فى البيان والأدب واللغة .

وله فى موضوع الالتفات مواطن تستحق التقدير مثل تعليله لتسميته التفاتًا ، ودلالة هذه التسمية على أهميته .

كما يحمد له أيضًا الاهتمام بالبيان القرآنى ، وكثرة الاستشهاد بأى الذكر الحكيم إلى جانب عنايته ببيان النبوة والتعويل على الحديث الشريف أيضًا فيما يسوقه من أمثلة .

ويدل تحليله لما يورده من أبيات شعرية على بصر بتذوق الشعر ، كما رأينا ذلك فى تحليله لأبيات أبى تمام التى يمدح فيها أبا دلف القاسم بن عيسى العجلى [١٩٣] .

وآثاره العلمية التى يتصدرها كتابه « المثل السائر » شاهد واضح على كل ذلك . لكن ... يؤخذ عليه فرط الإعجاب بنفسه ،

والزهو والفخر بآراء ليست له ، فى كثير من الأحيان ، ومحاولته الغض من قدر غيره ، وتلك كلها صفات تجافى أخلاق العلماء .

وإنا لنستشعر من خلال الحديث النبوى الشريف « العلماء ورثة الأنبياء » أن العلماء ينبغى لهم أن يلزموا نهج الأنبياء الخلقى من : صدق وأمانة ، وتواضع ، وتقدير لكل ذى فضل .

والعلم بمختلف فنونه .. جهود متضافرة يتعاون عليها كل المشتغلين به ، وكل جيل له فى هذه الجهود :

الوقوف على فكر من سبقوه ، ثم إضافة ما يستنبطه من جديد ، مع الالتزام بالنهج الخلقى الذى أشرنا إليه .

ولذا فإن بحثنا ذاك ، إذ يرى تخلى ضياء الدين بن الأثير عن هذا النهج .. يؤكد أن تخليه ذاك دعوة لكل ذى علم أن يعتبر بما لهذه المخالفة من أثر قد يصرف الناس عن الانتفاع بعلم صاحبها ، ولسنا نغالى إذا قلنا إن الخلق قطب يجذب بشدة إلى فكر صاحبه وبيانه .

كما أننا نقرر أن أبا الفتح عثمان بن جنى وجار الله الزمخشرى – رحم الله كلا منهما – يمثلان منارة عالية فى بحار الفكر البلاغى ، تستحق الالتفاف حولها ، والعكوف على ما ينبعث منها من أشعة هادية ، ومهما كان من دراسات تمت حول كل منهما ، فإن العطاء الفكرى لكل منهما لا يزال فياضًا .

وإلى جانب ذلك فنحن بحاجة إلى تأصيل قضايا الفكر البلاغى والبحث عن منابعها الأولى .. ولا شك أن البحث فى هذا السبيل شاق وصعب ، لكن عذوبة ما يوصل إليه من نتائج تهون كل صعب .

وأخيرًا فإننا – من خلال هذا البحث نردد .. صيحة جديدة نحو إعادة النظر فى تحقيق الكتابين : الجامع الكبير فى صناعتى المنظوم والمنثور ، وكفاية الطالب فى نقد كلام الشاعر والكاتب .

على أن يستهدى هذا التحقيق بتطبيق المقاييس الأسلوبية والخصائص التعبيرية على كل من الكتابين من خلال معايشة لابن الأثير فى كتبه التى لا يشك فى نسبتها إليه ، لتكون النتائج شاهد صدق على ما يمكن التوصل إليه .

وندعو الله – تعالى – أن يجزى شيخنا ضياء الدين بن الأثير خيرًا عن جهوده فى البيان والأدب والنقد وأن يجزى أيضًا العلماء الذين بذلوا جهودًا فى تحقيق كتابيه سالفى الذكر ، على أنهم اجتهدوا ونرجو أن يقيض الله لهما من يبذل جديدًا من الاجتهاد يحظى فيه بالإِصابة .

ونسأل الله تعالى أن يغفر لنا ولمن سبقونا ...

« ربنا اغفر لنا ولإِخواننا الذين سبقونا بالإِيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم »(١٩٤) .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

* * *

هوامش البحث ومصادره

(١) ينظر : وفيات الأعيان لابن خلكان ٥/٣٨٩، وشذرات الذهب ٥/١٨٨، والنجوم الزاهرة : ٦/٣١٨، وبغية الوعاة للسيوطى ٢/٣١٥.

(٢) ينظر : تاريخ علوم البلاغة ص ١٢٤.

(٣) ينظر : البلاغة تطور وتاريخ ص٣٣٤، ٣٣٥.

(٤) ينظر : المثل السائر ص٣٥، ٣٦ القسم الأول (تح د / أحمد الحوفى ، بدوى طبانة) .

(٥) الآية ١٣٥ من سورة النساء .

(٦) الآية ٨ من سورة المائدة .

(٧) الآية ٨٨ من سورة هود .

(٨) هو النوع الخامس : « توكيد الضميرين ..» وينظر : ٢/١٩١ من المثل السائر .

(٩) ١٧٠، ٢/١٧١.

(١٠) ينظر : ص٤١١ ج٢.

(١١) ينظر : جوهرة الكنز ص١١٨، نشر منشأة المعارف بالأسكندرية تحقيق د / محمد زغلول سلام .

(١٢) ينظر : المثل السائر ٢/١٧١.

(١٣) ينظر : نزهة الألباء فى طبقة الأدباء ١/٤٦٩.

(١٤) ينظر : معجم الأدباء ١٩/١٢٧.

(١٥) ينظر : الكشاف ٦٢- ١/٦٤ طبعة الحلبى ١٣٩٢هـ.

(١٦) ينظر : الجنى الدانى للمرادى ص٢٥٧، ص٢٥٨.

(١٧) ينظر : المثل السائر ٢/١٧٧.

(١٨) ينظر : الفلك الدائر على المثل السائر لابن أبى الحديد ص٢٢٥ ج٤ من المثل السائر (المسألة رقم ٨٥) .

(١٩) ينظر : المثل السائر ٢/١٧٧.

(٢٠) السابق نفسه .

(٢١) ينظر : المثل السائر ٢/١٧٣.

(٢٢) المثل السائر ١٧٣، ٢/١٧٤.

(٢٣) الآية ٢٨١ من سورة البقرة .

(٢٤) ينظر : المحتسب ١/١٤٥.

(٢٥) السابق نفسه .

(٢٦) ينظر : المحتسب ١/١٤٦.

(٢٧) ينظر : ترجمة ابن جنى التى ذكرت فى مقدمة كتاب « المحتسب » ت : على النجدى ناصف ، د . عبد الحليم النجار ، د . عبد الفتاح شلبى .

(٢٨) الآيات ٧٨، ٧٩، ٨٠ من سورة الشعراء .

(٢٩) ينظر : تفسير أبى السعود (٦/٢٤٩) .

(٣٠) الآية ٧٩ من سورة الكهف .

(٣١) الآية ٨٢ من سورة الكهف .

(٣٢) ينظر : صحيح مسلم بشرح النووى ص٥٩ ج٦ طبعة بيروت .

(٣٣) الكشاف ٦٤، ١/٦٥.

(٣٤) ينظر : خصائص التراكيب أ . د محمد أبو موسى ٢٠١ (نشر مكتبة وهبة) .

(٣٥) ينظر : التفسير الكبير ٣٠٧، ١/٣٠٨ (ط/ دار الغد العربى) .

(٣٦) ينظر : مفتاح العلوم ٩٦، ٩٧.

(٣٧) الآيتان ٨٨، ٨٩ من سورة مريم .

(٣٨) ينظر : المثل السائر ٢/١٧٤.

(٣٩) ينظر : التحرير والتنوير ٦/١٧٠.

(٤٠) ينظر : الكشاف ٢/٥٢٦.

(٤١) ينظر : المثل السائر : ١٧٥، ٢/١٧٦.

(٤٢) ينظر : الكشاف ٢/٤٣٧.

(٤٣) ينظر : التحرير والتنوير ١٥/١٠.

(٤٤) السابق : ١٥/١٠.

(٤٥) السابق ١٥/١٠.

(٤٦) السابق ٢١، ١٥/٢٢.

(٤٧) الآيتان ١١، ١٢ من سورة فصلت .

(٤٨) ينظر : المثل السائر ١٧٦، ٢/١٧٧.

(٤٩) ينظر : تفسير أبو السعود ٨/٦، وكذا روح المعانى : ٢٤/٩٢.

(٥٠) الآية ٦ من سورة الصافات .

(٥١) الآية ١٦ من سورة الحجر .

(٥٢) الآية ٥ من سورة الملك .

(٥٣) الآية ٨ من سورة النحل .

(٥٤) ينظر : نظم الدرر ١٧/١٥٧.

(٥٥) ينظر : المثل السائر ٢/١٧٧.

(٥٦) الآية ٢٢ من سورة يس .

(٥٧) الآية ٢٥ من سورة يس .

(٥٨) ينظر : الكشاف ٣/٣١٩.

(٥٩) ينظر : المثل السائر ٢/١٧٧.

(٦٠) ينظر : حاشية الدسوقى على شرح مختصر السعد (شروح التلخيص ٤٦٧، ٤٦٨/ ١).

(٦١) السابق نفسه .

(٦٢) السابق نفسه .

(٦٣) أى الخطيب القزوينى صاحب متن التلخيص .

(٦٤) أى : سعد الدين التفتازانى صاحب المختصر على متن التلخيص .

(٦٥) ينظر : حاشية الدسوقى على مختصر السعد (شروح التلخيص : ١/٤٦٨) .

(٦٦) الآيات : ١- ٦ من سورة الدخان .

(٦٧) ينظر : المثل السائر ١٧٧، ٢/١٧٨.

(٦٨) ينظر : عروس الأفراح للبهاء السبكى (شروح التلخيص ١/٤٧٤) .

(٦٩) ينظر : الكشاف ٣/٥٠١.

(٧٠) ينظر : تفسيره ٨/٥٩.

(٧١) ينظر : تفسيره ٢٥/١٠٥.

(٧٢) ينظر : تفسيره (٢٥/٢٨١).

(٧٣) ينظر : الفتوحات الإلهية للجمل (٤/١٠١).

(٧٤) ينظر : عروس الأفراح ١/٤٧٦ (شروح التلخيص) .

(٧٥) ينظر : نظم الدرر ص٧، ٨ ج١٨.

(٧٦) ينظر : روح المعانى ٢٥/١٠٥.

(٧٧) يراجع : العلامة الألوسى فى تفسيره روح المعانى ٢٥/١٠٦/١٠٥.

(٧٨) ينظر أيضًا : روح المعانى ٣٠/٢٤٧.

(٧٩) ينظر : شروح التلخيص ١/٤٦٨، والمطول للسعد ص١٣٣ والأطول للعصام ص١٥٥ ج١.

(٨٠) ينظر المثل السائر ١٧٨، ١٨٩، ٢/١٨٠.

(٨١) الأبيات من قصيدة لأبى تمام يمدح فيها أبا دلف بن عيسى العجلى (ديوان أبى تمام : شرح وتعليق د . شاهين عطية ، طبعة دار صعب – بيروت ج١ ص٤١.

(٨٢) قاطب : مازج الخمر بالماء .

(٨٣) الغوارب : جمع غارب وهو ما بين السنام والعنق .

(٨٤) الجذيل : تصغير جذل : وهو عود ينصب للجَرْبَى لتحتك به ، ومنه أنا جذيلها المحك ، وعذيقها المرجب « على سبيل الافتخار ، وآبه : أتاه ليلًا ، والعذيق : تصغير عذق ، وهو الفرع من النخلة .

(٨٥) الكعاب : بارزة النهدين ، الرود : اللينة ، الثائر : طالب الثأر . العرمس الناقة الشديدة ، الوجناء : عظيمة الوجنتين .

(٨٦) العيس : الإبل البيض بشقرة .

(٨٧) التمائم : خزرات تعلق فى عنق الصبى لدفع العين عنه ، مفردها تميمة .

(٨٨) النوروز : هو أول أيام السنة الشمسية ، أول أيام فصل الربيع حيث يوافق يوم ٢١ من مارس والكلمة مكونة من مقطعين « نو » و « روز » ومعناها يوم جديد .

(٨٩) ينظر : المثل السائر : ١٨٠، ٢/١٨١.

(٩٠) ينظر : المثل السائر ٢/١٨١.

(٩١) الآية ٢٢ من سورة يونس .

(٩٢) ينظر : الكشاف ٢/٢٣١.

(٩٣) ص ١٠٠ ج٩.

(٩٤) ينظر : البحر المحيط ١٣٨، ٥/١٣٩.

(٩٥) ينظر : المثل السائر ٢/١٨٢.

(٩٦) الآيتان : ٩٢، ٩٣ من سورة الأنبياء .

(٩٧) هكذا العبارة فى الكشاف بالحاء ، واعتقد أن هذا تحريف أو خطأ فى النقل ، لأن التحريف لا يناسب الالتفات وإنما الذى يناسب التصريف الذى هو من شأن المعانى فالكلمة هنا محرفة عن « صرف » وذلك ما أراه يليق بجار الله الزمخشرى رحمه الله .

(٩٨) ينظر : الكشاف ٢/٥٨٣.

(٩٩) ينظر : تفسيره : نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور ٤٧٧، ١٢/٤٧٨.

(١٠٠) ينظر : المثل السائر ١٨٢، ٢/١٨٣.

(١٠١) الآية ١٥٨ من سورة الأعراف .

(١٠٢) ينظر : الكشاف ٢/١٢٣.

(١٠٣) ينظر : تفسيره ٣/٢٨١، وكذا : روح المعانى للألوسى ٩/٧٣.

(١٠٤) الآية : ٥٤ من سورة هود .

(١٠٥) المثل السائر ١٨٣، ٢/١٨٤.

(١٠٦) ينظر : الكشاف ٢/٢٧٦.

(١٠٧) ينظر : حاشية الشريف الجرجانى على الكشاف ٢/٢٧٦.

(١٠٨) ينظر : السابق نفسه .

(١٠٩) ينظر : مواهب الفتاح (شروح التلخيص) ٣/٢٦.

(١١٠) ينظر : عروس الأفراح (شروح التلخيص ٢٦، ٣/٢٧).

(١١١) ينظر : حاشية السيد على المطول ص٢٥٢.

(١١٢) ينظر : روح المعانى ١٢/٧٥.

(١١٣) ينظر : التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١٢/٩٩.

(١١٤) السابق نفسه .

(١١٥) ينظر : المثل السائر ٢/١٨٤.

(١١٦) ينظر : المثل السائر : ٢/١٨٤.

(١١٧) ينظر : نظم الدرر ٧/٣٨٥.

(١١٨) الجرجانى هنا هو السيد الشريف الجرجانى ، وما نسب إليه ذكر فى حاشيته على « المطول » للسعد (ينظر الحاشية على المطول ص٢٥٢) .

(١١٩) روح المعانى : ٨/٩٣.

(١٢٠) الآيتان : ٢٧، ٢٨ من سورة الأعراف .

(١٢١) ينظر : فى ظلال القرآن ٣/١٢٨١.

(١٢٢) ينظر : التحرير والتنوير ٨/٨٧.

(١٢٣) ينظر : المثل السائر ٢/١٨٥.

(١٢٤) الآية ٩ من سورة فاطر .

(١٢٥) ينظر : الكشاف ٣٠١، ٣/٣٠٢.

(١٢٦) ينظر : الكشاف ٢/٣٠٢.

(١٢٧) اللأمة : الدرع ، أو السلاح أو أداة الحرب .

(١٢٨) العنزة) بفتحتين) مثل نصف الربح أو أكبر منها ، وفيها سنان كسنان الرمح .

(١٢٩) متعقفة : ملتوية .

(١٣٠) ينظر : الأغانى : أخبار تأبط شرا ص ٨٣٢٦، ص٨٣٢٧ ج٢٤- طبعة الشعب .

(١٣١) السهب : الأرض المستوية ، والصحصحان : الأرض المستوية الواسعة ، والجران : جران البعير وكذا الفرس : مقدم عنقه من مذبحه إلى منحره .

(١٣٢) ينظر : المثل السائر ٢/١٨٧.

(١٣٣) ينظر : الكشاف ٣/٣٠٢.

(١٣٤) الآيتان : ٣٠، ٣١ من سورة الحج .

(١٣٥) ينظر : المثل السائر ٢/١٨٨.

(١٣٦) ينظر : فى ظلال القرآن ٤/٢٤٢١.

(١٣٧) ينظر : المثل السائر ٢/١٨٥.

(١٣٨) الآية ٦٣ من سورة الحج .

(١٣٩) ينظر : المثل السائر ١٨٨، ٢/١٨٩.

(١٤٠) ينظر : تفسير أبى السعود ٦/١٠٣، وروح المعانى ٧/١٢٥، وأعراب القرآن - للنحاس ٣/٩٢.

(١٤١) ينظر : روح المعانى ١٧/١٢٥.

(١٤٢) ينظر : تفسير أبو السعود ١٠٣/ وكذا : روح المعانى ١٧/١٢٥.

(١٤٣) ينظر : نظم الدرر ٣٣، ١٣/٣٤.

(١٤٤) الآية : ٦٣ من سورة الحج .

(١٤٥) ينظر : المثل السائر ٢/١٨٩.

(١٤٦) الآية ١٨ من سورة المؤمنون .

(١٤٧) ينظر : الكشاف ٣/٢١.

(١٤٨) الآية ٨٧ من سورة النمل .

(١٤٩) ينظر : المثل السائر : ٢/١٩٠.

(١٥٠) ينظر : الكشاف ٣/١٦١.

(١٥١) الآية : ٤٧ من سورة الكهف .

(١٥٢) ينظر : المثل السائر ٢/١٩٠.

(١٥٣) ينظر : عروس الأفراح (شروح التلخيص ١/٤٨٥) .

(١٥٤) ينظر : شروح التلخيص ١/٤٨٤.

(١٥٥) الآية ١٠٣ من سورة هود .

(١٥٦) الآية ٩ من سورة التغابن .

(١٥٧) ينظر : المثل السائر : ٢/١٩١/١٩٠.

(١٥٨) ينظر : الكشاف : ٢/٢٩٢.

(١٥٩) ينظر : الإيضاح : ١/١٥١/١٥٠ (بتعليق : الشيخ عبد المتعال الصعيدى) .

(١٦٠) ينظر : الصفحات من ٩٨- ١٠٢ من « الجامع الكبير فى صناعة المنظوم والمنثور . تحقيق د . مصطفى جواد ، ود . جميل سعيد . مطبوعات المجمع العلمى العراقى ١٩٥٦م .

(١٦١) هكذا جاء بلفظ « العباد » فى النسخة المطبوعة وصوابه بالعبادة .

(١٦٢) هكذا فى المطبوعة ، وصوابه : غضبت .

(١٦٣) سورة مريم الآية ٨٩.

(١٦٤) هكذا فى المطبوعة وصوابه : تسجيل ، ولعل ذلك كله تحريف .

(١٦٥) سورة يونس الآية ٢٢.

(١٦٦) سورة الأنبياء الآية ٩٣.

(١٦٧) سورة الأعراف الآية ١٥٨. هذا وفى الآية جزء متروك ، وصوابه بعد قوله « الذى له ملك السموات والأرض ، لا إله إلا هو يحيى ويميت ، فآمنوا بالله » .

(١٦٨) سورة هود الآية ٥٤.

(١٦٩) سورة يونس الآية ٨٧.

(١٧٠) سورة يس الآية ٢٢.

(١٧١) سورة يس الآية ٢٥.

(١٧٢) سورة فاطر الآية ٩.

(١٧٣) سورة الحج الآية ٦٣.

(١٧٤) ينظر : شروح التلخيص (عروس الأفراح ج١ ص٣٠).

(١٧٥) ينظر : السابق نفسه ص٩١.

(١٧٦) ينظر : ج١ ص٥٧١ من كشف الظنون .

(١٧٧) ينظر : جوهرة الكنز لابن الأثير الحلبى تحقيق وتعليق د . محمد زغلول سلام بهامش الكتاب ص١١٨. نشر منشأة المعارف بالاسكندرية .

(١٧٨) ينظر : ضياء الدين ابن الأثير د . محمد زغلول سلام ص٥٣.

(١٧٩) وفيات الأعيان ج٥ ص٣٨٩- ٣٩٧.

(١٨٠) ج٤ ص٩٩.

(١٨١) ج٢ ص٣١٥.

(١٨٢) ج٥ ص١٨٨، ١٨٩.

(١٨٣) ينظر : ص٢٢١ إلى ص ٢٢٣ من : كفاية الطالب . دراسة وشرح وتعليق الدكتور : النبوى عبد الواحد شعلان طبعة أولى ١٤١٥هـ- ١٩٩٤م « الزهراء للإعلام العربى » .

(١٨٤) الآية ٢٢ من سورة يونس .

(١٨٥) ينظر : الأعلام للزركلى ص٣١ ج٨ نشر دار العلم للملايين - بيروت - طبعة ١٩٧٩م.

(١٨٦) ينظر : الجزء الثانى من العمدة صفحات : ٤٥، ٤٦، ٤٧ تحقيق الشيخ محيى الدين عبد الحميد طبعة بيروت (الطبعة الرابعة ١٩٧٢م) .

(١٨٧) ينظر : الفلك الدائر على المثل السائر ص٣٢ (بالجزء الرابع من المثل السائر) تحقيق د . أحمد الحوفى ، ود . بدوى طبانة » .

(١٨٨) ينظر : الفلك الدائر على المثل السائر ص٩٧ (بالجزء الرابع من المثل السائر - تحقيق د ج أحمد الحوفى ، ود . بدوى طبانة » .

(١٨٩) ينظر : المثل السائر ص٤٣، ج١ (ت . د . الحوفى ود . طبانة) .

(١٩٠) ينظر : السابق نفسه ص٤٠ ج١ وكذا ص٧٣ ج١.

(١٩١) ينظر : السابق نفسه ص٢٢٤ ج١.

(١٩٢) ينظر : ضياء الدين ابن الأثير د . محمد زغلول سلام ص٥٧.

(١٩٣) ينظر : المثل السائر ٢/١٧٩.

(١٩٤) الآية ١٠ من سورة الحشر .

* * *